

القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار⁽¹⁾

بقلنم : د. جمعة شيخة
كلية الآداب - متوبة - تونس

تقديم الديوان .

رغم ما تعرّض له التراث الأندلسي من محن وكوارث أدّت إلى إتلاف جزء كبير منه ، فإنّ الدارسين لم يألوا جهدا في البحث عمّا بقي منه ، سواء في المكتبات العامة أو الخاصة ، لتحقيقه ونشره في مرحلة أولى ، ودرسه وتقييمه في مرحلة ثانية .

وهذا المجهود لا شك أنّ نقاد الأدب عامة ، والشعر منه بصفة خاصة ، في حاجة أكيدة إليه ، لأنّه لا يمكن لهم إيداء أي حكم يتّسم بالدقة والشمول معا إلّا إذا توفرت لديهم النصوص ، وهي دواوين الشعراء .

ولقد توفّر للمهتمين بالشعر الأندلسي بعض هذه الدواوين . فمنذ سنوات تمّ تحقيق مجموعة لا بأس بها نذكر منها :

— ديوان يحيى بن حكم الغزال ت 864/250 (تحقيق محمد رضوان الداية ط 1 دمشق 1982) .

— ديوان ابن درّاج القسطلّي ت 1029/421 (تحقيق د. محمود علي مكّي ط 2 بيروت 1389) .

— ديوان ابن شهيد ت 1035/426 (تحقيق شارل بلا بيروت 1963) .

(1) طبع بتونس 1985 بالدار التونسية للنشر . تحقيق الأستاذ عبد السلام الهّراس في 496 صفحة .

- ديوان أبي إسحاق الإلبيري ت 1067/460 (تحقيق محمد رضوان الداية ط بيروت 1976) .
- ديوان المعتضد بن عباد ت 1069/461 (تحقيق رضا السويسي . فصلة من مجلة التربية بطرابلس) .
- ديوان ابن زيدون ت 1071/463 (تحقيق محمد سيد كيلاني، ط 3 مصر 1965) .
- ديوان المعتمد ت 1095/488 (تحقيق د. رضا السويسي ط تونس 1975) .
- ديوان ابن اللبّانة ت 1013/507 (تحقيق محمد مجيد السعيد. ط البصرة 1977) : جمع لشعره .
- ديوان الأعمى التطيلي ت 1130/525 (تحقيق إحسان عباس ، ط البصرة 1977) .
- ديوان ابن الرقاق ت 1135/529 (تحقيق عفيفة محمود ديراني ، ط بيروت) .
- ديوان ابن خفاجة ت 1139/533 (ط بيروت 1961) .
- ديوان ابن قزمان ت 1160/555 (تحقيق ف. كورينطي ، ط مدريد 1980) .
- ديوان الرصافي البلسي ت 1176/572 (تحقيق إحسان عباس ، ط 2 بيروت 1983) .
- ديوان ابن سهل الإسرائيلي ت 1251/649 (تحقيق محمد قوبعة . ط تونس 1985) .
- ديوان حازم القرطاجني ت 1285/684 (تحقيق عثمان الكعاك ط بيروت 1964) .
- ديوان ابن الجيّاب ت 1347/749 (تحقيق السيدة خيسوس رويرا . ط غرناطة 1982) .
- ديوان ابن خاتمة ت 1368/770 (تحقيق محمد رضوان الداية ، ط دمشق 1972) .
- ديوان ابن الخطيب ت 1375/776 (تحقيق محمد الشريف قاهر . ط الجزائر 1973) .
- ديوان يوسف الثالث ت 1417/820 (تحقيق عبد الله كنون ، ط القاهرة 1965) .
- ديوان ابن فركون ق 15/9 (تحقيق محمد ابن شريفة ط المغرب 1987)(2) .
- (2) وظهر ونحن بصدد القيام بهذا البحث ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي ق 15/9 . (تحقيق جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي ط . تونس 1988) .

وانضاف إلى هذه المجموعة القيّمة من الأعمال خلال سنة 1985 ثلاثة دواوين :
إثنان أعيد تحقيقهما وهما ديوان ابن سهل وديوان المعتمد (وفيه قسم مخصّص لشعر
أبيه المعتمد بن عباد) . والثالث ديوان حَقّق لأول مرّة وقام بتحقيقه الدكتور عبد السلام
الهّراس أستاذ الأدب الأندلسي بكلية الآداب جامعة الملك سيدي محمد بن عبد
الله — فاس — المغرب : وهو ديوان ابن الأَبّار .

ولا شك أنّ الأستاذ الهّراس بعمله هذا — وقد انتظرناه طويلا — سدّ ثغرة لا يستهان
بها في تاريخ الشعر الأندلسي . فصاحب الديوان هو إحدى الشخصيات المرموقة خلال
القرن 13/7 على المستويين السياسي والأدبي : مارس السياسة في أحلك فترة من فترات
تاريخ شرقي الأندلس، كما مارسها في أصعب بلاط وأخطره بإفريقية . وخرج من
المرحلة الأولى وقد سلب وطنه ، وأُخرج من الثانية وقد أزهدت روحه (3) . أمّا من
الناحية الفكرية والأدبية ، فقد وصلنا من آثار ابن الأَبّار — رغم أنّ جلّ مؤلفاته أحرقت
معه عند مقتله — ما يدلّ على أننا أمام رجل قدير ذي ثقافة موسوعية ، طرق مجالات
من المعرفة شتّى فلم يخفق له قلم ، وكتب في مواضيع متعدّدة فلم يكب له جواد .
ولم يمنعه نشاطه السياسي المتنوّع ، ولا شواغله الفكرية المتعدّدة من أن يكون أحد
كبار شعراء المغرب والأندلس في القرن 13/7 . ولعلّ ديوانه هذا الذي أصبح في متناول
الأيدي خير دليل على ذلك .

جاء هذا الديوان في 496 صفحة مقسّمة على التحو التالي :

1 — المقدمة (ص ص 5—30) أشار فيها الأستاذ الهّراس أن تحقيقه لديوان
ابن الأَبّار يمثل القسم الثاني من رسالة جامعية تقدّم بها لنيل شهادة الدكتوراه الدولية
من كلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد سنة 1966 . أمّا القسم الأول من بحثه —
ولم ينشر إلى حدّ علمنا — فهو المتعلّق بدراسة الديوان وحياة صاحبه وشاعريته . وبما
أنّ المحقّق درس حياة الشاعر وشعره في هذا القسم الأول من الأطروحة ، فلم يرد
تكراره في هذه المقدمة ، واقتصر على التعريف بابن الأَبّار تعريفا موجزا . كما قام
بتقديم النسخة الوحيدة التي اعتمدها في التحقيق والمحافظة في الخزانة الملكية
بالمغرب تحت رقم 4602 .

2 — النصّ المحقّق (ص ص 33 — 469) ويشتمل على :

أ — محتوى النسخة السابقة . وجاءت القصائد فيها مرتّبة على الحروف

(3) قتل ابن الأَبّار بتونس يوم الثلاثاء 20 محرم 658 الموافق 1260/1/6 .

الهجائية حسب الترتيب المغربي الأندلسي⁽⁴⁾ باستثناء الحروف الأربعة التالية : خ — ز — ط — ظ .

ب — ملحق 1 : وفيه ما جمعه المحقق من شعر ابن الأبار في مصادر مختلفة مطبوعة ومخطوطة، ولم يرد ذكره في الديوان .

ج — ملحق 2 : وفيه قصيدتان وجددهما المحقق في ورقتين ملصقتين بالديوان ورجح أنهما لابن الأبار .

3 — فهارس (ص ص 473 — 496) للقوافي ، والقصائد حسب الأغراض ، والقصائد حسب البحور .

ونحن نشاطر الدكتور الهّراس في (أن الإقدام على التحقيق على نسخة واحدة مغامرة محفوفة بالمخاطر والمزالق خصوصا وهي حافلة بالتصحيف والخُروم)⁽⁵⁾ . ولكن نعتقد أن المحقق خرج موقفا من هذه المغامرة . فقد قدّم لدارسي الأدب الأندلسي نصا سليما في جملته ، فيه من التعليقات اللغوية والتاريخية ما يجعل قراءته مفيدة ، ولم لآ ممتعة؟ .

لكن كلّ هذا لا يمنع من أن نبدي بعض الملاحظات عنت لنا بعد اطلاعا على هذا العمل الجيد : يبدو أن الأستاذ الهّراس كتب مقدّمة الديوان منذ سنة 1969 ، ولم ير مُوجبا للرجوع إليها عند طبعه . وهذا ما جعلنا نجد في هذه المقدّمة أشياء تجاوزتها الأحداث كما يقال ، فبعض الكتب التي ذكرها المحقق مخطوطة. قد حقّق وطبع كرحلة ابن رشيد (تحقيق الأستاذ محمد الحبيب بلخوجة) ، والدّليل والتكملة (تحقيق الأستاذ محمد ابن شريفة) . والإحاطة (تحقيق الدكتور عبد الله عنان) . وسبك المقال (تحقيق الأستاذ عبد الواحد الزغلامي)⁽⁶⁾ .

ويبدو كذلك أن المحقق كتب المقدّمة بسرعة مما جعله يرجع بعض الآراء بطريقة غير منهجية ففي ص 23 يقول : (إن نسخ هذا الديوان وقع حوالي سقوط الأندلس).

(4) الترتيب الهجائي المغربي والأندلسي هو كآآتي : أ — ب — ت — ث — ج — ح — خ — د — ذ — ر — ز — ط — ك — ل — م — ن — ص — ض — ع — غ — ف — ق — س — ش — ه — و — ي .

(5) الديوان ص 24 .

(6) قد يكون الأستاذ الهّراس استعمل هذه المصادر مخطوطة سنة 1969 . لكن بما أننا في سنة 1985 يجب مراجعة ما قلناه في سنة 1969 وخاصة بمناسبة طبع الأثر المحقق .

لكن ما هو الدليل على ذلك ؟ وفي ص 13 نجد (وامتدت به (ابن الأبار) الإقامة في بجاية بالتحقيق (يقصد بالضبط) سبع سنوات من سنة 650 — 657 ، وإن كنا نظن أنها أكثر بقليل) لكن ما هي الحجة في هذا الترجيح ؟ إن البحث العلمي لا يمكن أن يطمئن إلى الحدس والتخمين ولا يقوم إلا على الحجة والدليل . ومن نتائج هذا التسرع :

— إيراد المحقق بعض أسماء المؤلفين دون ذكر عناوين كتبهم . ففي ص 29 يذكر من بين عناوين الكتب : (عبد المجيد) والحقيقة أن هذا هو اسم المؤلف وعنوان كتابه الذي لم يذكر هو (ابن الأبار) . والعكس يذكر اسم الكتاب دون ذكر لصاحبه فمن هو مؤلف كتاب (قبائل العرب) المذكور في ص 35 تعليق 29 ؟ ومن هو مؤلف (هبة الأيام في أخبار أبي تمام) ص 43 تعليق 34 ؟ وقد يذكر المصدر لكن بدون ذكر للصفحة (انظر ص 418 تعليق 5) .

— ذكره لبعض المعلومات هي في حاجة إلى مزيد التدقيق . فأبو الحسين (وتارة أبو الحسن) عيسى ابن لب ... ابن دسيم هو زوج ابنة (ابن الأبار) ص 15 . وتارة هو زوج ابنته أو أخته ص 16 . فإن كانت المصادر هي التي اختلفت في ذلك فما على الباحث إلا أن يشير إلى هذا الاختلاف . كما أن ما ذكره في التعليق 7 ص 418 من احتمال ، هو بعيد جدًا عن روح القصيد ، فلو دقق المحقق لرأى أن كلمة (مصرية) لا يمكن أن تعوضها كلمة (مغربية) أو (حضرية) .

— عدم ضبطه لمصادره بالطريقة المنهجية المتمثلة في ذكر المؤلف والمحقق ومكان الطبع وزمانه (انظر كيف جاءت قائمة المصادر في ص 29) .

— إهماله لترقيم أبيات القصائد ، ولعل هذا الإهمال جرّه إلى إهمال أكبر هو عدم وضعه لفهرس الأماكن والأعلام (7) . والأستاذ الهّراس لئن لم يقيم بالترقيم والفهرسة للأعلام والأماكن ، فقد حاول أن يشير في تعاليق له ، رمز لها بشكل نجمة ، إلى الظروف التي حفت بقول القصيدة أو المناسبة التي قيلت فيها . لكن يجب أن تكون هذه التعاليق دقيقة وكاملة . فعلى سبيل المثال نجد في ص 55 ابن زيد . من هو

(7) قد يرى بعضهم أن فهرس الأعلام والأماكن في ديوان شعر عديم الجدوى . وهذا خطأ محض لأن الأحداث التاريخية والمظاهر الحضارية توجد مبثوثة خلال الأبيات مما يجعل ترقيمها ووضع فهرس من هذا النوع محتمًا .

أبن زيد هذا ؟ يكتفي المحقق بإرجاعنا إلى المصادر لمعرفة وهذا غير عملي بالتصبة إلى القارئ . وابن زيد هذا (خطأ مطبعي) هو أبو زيد عبد الرحمن الموحدي حاكم بلنسية أطرده منها أبو جميل زيّان ابن أبي الحملات في صفر 626/جانفي 1229 . فلجأ إلى أراغون وتمسّح . وكان ابن الأبار قد خرج معه ثم رجع⁽⁸⁾ وفي ص 197 تعليق 27 و 29 وفي ص 427 تعليق 21 نجد : ابن إسحاق : هو ابن غانية . لكن من هو منهما علي أو يحيى ؟ أو من بقي من إخوتهما في الجزائر الشرقية ؟ المقصود بطبيعة الحال في القصيدة هو يحيى بن غانية الذي بقي بعد مقتل أخيه علي ثائرا صامدا في وجه الدولة الموحّدية ثم الحفصية حوالي نصف قرن . وفي ص 80 نجد المحقق يعلّق على القصيدة 25 بقوله : (أنشأها بمناسبة بيعه بعض مدن الأندلس والمغرب لأبي زكريّا الحفصي ، وذلك حوالي 641 هـ/1243 لأن إشبيلية (حمص بايعت هذه السنة) . وهذا تعليق مقتضب وغير دقيق . فالأولى أن نذكر هذه المدن — خاصة وقد عدّدها الشاعر في القصيدة — بأسمائها ، ونعرّف بالظروف التي كانت تمرّ بها كلّ واحدة منها حتّى رأّت من الضروري الدّخول في طاعة الحفصيين ولو اسمياً . وفي ص 417 يقول المحقق في تعليقه على القصيد 201 : أنشأها (يمدح أبا زكريّا ووليّ عهده ولعلّه أبو يحيى في طالع سنة جديدة ولعلّها سنة 640 هـ/1242 أو 641 هـ/1243 والبحث المنهجي لا يمكن أن يقبل مثل هذه التّعليق التّقرّيبية غير الدقيقة .

والأستاذ الهّراس لئن اعتمد على نسخة واحدة وفي ذلك ما فيه من المشقة والجهد ، فإنّ كثيرا من شعر ابن الأبار نجده مبنوثا في عدّة مصادر مطبوعة . وهذا من شأنه أن يسهّل نسبيّا على الباحث استخراج نصّ مقروء . وهنا كان من المستحسن أن يقوم المحقق بعملية تخريج للأبيات — وذلك بالمقارنة بين المصادر — في بداية تعليقه على كلّ قصيدة حتّى يتمكّن الدّارسون من معرفة ما أضافه الدّيونان من جديد⁽⁹⁾ .

والأستاذ الهّراس قام بشرح الكلمات الصّعبة ، لكنّه أغفل كثيرا منها ، بعضها يبدو أصعب ممّا شرح . ففي ص 137 قصيدة 59 بيت 4 يشرح كلمة رداح ويترك كلمة

(8) ذكر المحقق هذا في المقدّمة عند ترجمته لابن الأبار . لكن يجب ذكره هنا في هذا المكان المناسب لإعانة القارئ على فهم القصيدة .

(9) قام المحقق بالإشارة إلى ذلك داخل القصيد ، ولكنّه كان يذكر فقط المصادر دون مقارنة بينها ودون تحديد للأبيات كقوله ص 59 في تعليقه على القصيدة 13 (وردت بعض الأبيات في المغرب 312/2 . والقدر 192 وفي الرّايات 82) .

ر أد . وفي ص 141 بيت 1 لا يشرح كلمة حدثان وبيت 7 كلمة إهطاع إلخ ... بل إنَّ أبياتا كثيرة في حاجة إلى التعليق لعمسرها على الفهم . ومن أولى بشرحها من المحقق ؟

وقام المحقق بشكل الشعر ، وأغفل شكل بعض الكلمات نرى أنَّ شكلها واجب نظرا إلى أنَّ الصعوبة تكمن فيها . وقد نجد بعض الهنات في الشكل . ففي ص 133 ، القصيدة 58 ، البيت 10 نرى أنَّ كلمتي (وجدانها المنشود) يجب أن تقرأ منصوبة لا مرفوعة لأنَّها مفعول به لأسمعت . وفي ص 421 ، البيت 6 يجب أن نقرأ يزخر بفتح العين لا بضمها . وفي ص 417 البيت 3 : الظلال هي التي تلاعب المياه . لذلك نرى أن يُقرأ الصّدر هكذا : (إذا لاعبت المياه ظلاله) .

وفي ص 137 قصيدة 59. بيت 5 يجب أن نكتبه هكذا :
وَتَقَطَّعَتْ مَا بَيْنَنَا الْأَسْبَابُ فَأَلَّ أَقْلَامُ خُرْسٍ وَالرِّيَاحُ زَوَاكِدُ
حَتَّى يَسْتَقِيمَ الْوِزْنُ فِي الصَّدْرِ وَالْعِجْزِ⁽¹⁰⁾ . وفي ص 141 ، البيت 7 يجب أن نعوض الهزمة القطعية في (المريّة) بهزمة وصلية للوزن كذلك .

لكنَّ كلّ هذه الملاحظات الجزئية لا يمكن بحال أن تنقص من قيمة عمل الدكتور الهّراس⁽¹¹⁾ في خبرته العميقة بمناهج التحقيق ومعرفته الشاملة بعصر الشاعر ، وضع بين أيدينا ديوانا على غاية كبيرة من الأهمية . فهو زيادة على أنّه يكشف عن بعض جوانب من حياة الشاعر الشخصية ويدقّقها ، يعطينا صورة عن القرن السابع الخطر والخطر في نفس الوقت : ففيه انقضت عُرى الوحدة التي أقامها بنو عبد المؤمن ، وفيه انتقل — ولو إلى حين — مركز الثقل السياسي من المغرب الأقصى إلى إفريقية . وديوان ابن الأبار يعكس بصورة واضحة الدور الذي لعبه هذا المركز الجديد في محاولة منه لاستقطاب كامل القوى السياسية على الساحة المغربية والأندلسية وصهرها في بوتقة الدولة الحفصية بتونس . فكيف بدا كلّ ذلك من خلال هذا الأثر الشعري ؟

إنَّ الناظر في ديوان ابن الأبار يمكن أن ينظر فيه من زاويتين : فإن كان ناقدًا أو أسلوبيًا كانت غايته منه القيمة الجمالية فيه ، وإن كان مؤرخًا للأدب أو دارسًا للتفكير فيه كان هدفه منه القيمة الوثائقية .

(10) جاء البيت في الديوان هكذا :

وَتَقَطَّعَتْ مَا بَيْنَنَا الْأَسْبَابُ فَأَلَّ لَأَمْ خُرْسٍ وَالرِّيَاحُ زَوَاكِدُ

(11) ذكر المحقق بتواضعه المعهود منه أنَّ صعوبات كثيرة اعترضته وأنَّ (هناك مشاكل لا يمكن حلّها إلاّ بالعنور على نسخة أخرى من الديوان) ص 27 .

ولقد نظرنا في ديوان ابن الأَبَّار من الزَّاوية الثانية أي بحثا عن قيمته الوثائقية ، فبدا لنا أَنَّ ديوانه — كحياته — يمكن أن نلاحظ فيه قسمين أو مرحلتين :

1 — المرحلة الأولى : تمثّل الفترة التي قضاها الشاعر في شرقي الأندلس من مولده سنة 595 هـ/1198 م إلى انتقاله إلى العدو الإفريقية سنة 636 هـ/1238 م .

2 — المرحلة الثانية تمثّل الفترة التي قضاها في إفريقية وتمتدّ من هجرته إلى بجاية سنة 636 هـ/1238 م إلى مقتله سنة 658 هـ/1260 م .

وفي كلتا المرحلتين عاش ابن الأَبَّار أحداثا جساما تركت بصمات واضحة في شعره . وقد حاولنا أن نتتبع هذه الأحداث من خلال ما نظمه ابن الأَبَّار من شعر ، فكان ما وصلنا إليه تارة مدّعا لما جاء في المصادر التاريخية واضحا ، وحينما مدقّقا لما جاء بها عامّا وطورا ثالثا مضيفا أشياء قد لا يهتمّ بها المؤرّخون عادة في القرون الوسطى ولكنها بالنسبة إلينا اليوم على جانب كبير من الجدوى . وسنبدا بالمرحلة الأولى أي الفترة الأندلسية من حياة ابن الأَبَّار ونشئ بالمرحلة الثانية أي الفترة الإفريقية منها .

العدوة الأندلسية في ديوان ابن الأَبَّار

1 — فتنة بيران (12)

قام بها أهل هذه القلعة ضدّ السيّد أبي زيد عبد الرّحمان بن محمّد بن يوسف بن عبد المؤمن والي بلنسية . ولكن سرعان ما أذعنت هذه القلعة لابنه أبي يحيى وأعلنت طاعتها سنة 1225/622 . وذكر ابن الأَبَّار في قصيد مدح فيه أبا زيد ما كان ينتظر القلعة من تدمير وتخريب لو أصرت على المقاومة . وهو في مدحه لا يخفي ابتهاجه بهذه النتيجة التي أدّت إلى فوز الأمير بطاعة القلعة ونيل القلعة عفو الأمير . [البسيط] (13).

1— لِلّهِ قَلْعَةُ بَيْرَانَ وَعِزَّتُهَا عَلَى الْأَعَاصِيرِ فِي مَاضِي الْأَعَاصِيرِ
2 — عَنَّتْ وَذَانَتْ عَلَى حُكْمِ الْمُنَى فَرَقَا مِنْ سَيِّدٍ قَدْ هَوَتْ مِنْ أَرْفَعِ السُّورِ

(12) حصن من أعمال دانية (ابن سعيد : المغرب 2/419) .

(13) د/ص 442 (د = ديوان ابن الأَبَّار) .

- 3- وَأَذَعَنْتَ وَهِيَ الشَّمَاءُ ذُرُوءُهَا
- 4- وَلَوْ أَصْرَتْ عَلَى الْإِعْرَاضِ ثَانِيَةً
- 5- مَدَّتْ إِلَيْكَ أُمًّا زَهْدًا بِطَاعَتِهَا
- 6- وَأَكْثَدَتْ فِي الرُّضَى وَالصَّفْحِ رَغْبَتَهَا
- 7- فَجَذَّتْ جُودَكَ بِالتَّغْمَى بِمَا سَأَلَتْ
- عَلَى جَجَاجِ لَهَا مِنْ قَبْلِ مَذْكُورٍ
- لَأَصْبَحَتْ بَيْنَ تُخْرِبٍ وَتَذْمِيرٍ
- بَدَا مَخَافَةً صَوْلٍ مِنْكَ مَشْهُورٍ
- كَمَا تَقْدُمُ تَأْيِيدُ الْمَقَادِيرِ
- مِنْ الْأَمَانِ لَهَا طَلَقُ الْأَسَارِيرِ

2 - معركة أنيشة :

وقعت هذه المعركة يوم الخميس 20 من ذي الحجة 634/14 أوت 1237 بين جيش بلنسية يقوده الأمير زيان بن مردنيش وجيش أراغوني في محاولة من المسلمين الاستيلاء على حصن أنيشة الذي اتخذته التصاري قاعدة للانطلاق والإغارة على نواحي إقليم بلنسية . وانتهت المعركة بهزيمة فادحة للمسلمين وكانت بمثابة انهيار الجدار الأندلسي بعد انهيار الجدار الموحد في معركة العقاب . واهتم ابن الأبار بهذه المعركة من خلال رثائه (14) لشيخه أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي ، وقد سقط صريعا على أرض الميدان . وفي الديوان نجد تحديدا للمعركة من حيث المكان والزمان . قال ابن الأبار [طويل] (15) .

- 25- سَقَى اللَّهُ أَشْلَاءَ يَسْفَحِ أَنْيْشَةَ سَوَافِحَ تَرْجِيهِهَا يُقَالُ الْغَمَائِمِ
- 24- أَضَاعَهُمْ يَوْمَ الْخَمِيرِ حِفَاطُهُمْ وَكَرَّهُهُمْ فِي الْمَازِقِ الْمُتَلَاحِمِ

وقال الشاعر يصف قتلى المسلمين في هذه المعركة ، وفي وصفه لهم إكبار وإجلال يخفي في ثنياه كثيرا من الحسرة والألم : [طويل] (16) :

- 1- أَلْمَا بِأَشْلَاءِ الْعُلَى وَالْمَكَارِمِ
- 2- وَغُوجَا عَلَيْهَا مَارَبَا وَمَفَازَةً
- 3- تُحْيِي وَجُوهَهَا فِي الْجَنَانِ وَجِيهَةً
- 4- وَأَجْسَادَ إِيْمَانٍ كَسَاهَا نَجِيْعُهَا
- 17- تَغْلَعْلَلُ فِيهَا كُلُّ أَسْمَرٍ ذَابِلٍ
- تَقْدُّ بِأَطْرَافِ الْقَنَّا وَالصَّوَارِمِ
- مَصَارِعُ غَصَّتْ بِالطَّلَى وَالْجَمَاجِمِ
- بِمَا لَقِيَتْ حُمْرًا وَجُوهَ الْمَلَا حِمِ
- مَجَاسِدَ مِنْ نَسَجِ الطُّبَى وَاللَّهَازِمِ
- وَجَدَّلَ مِنْهَا كُلُّ أَبْيَضٍ نَاعِمِ

(14) خصص لرثائه قصيدة بـ 101 بيت .

(15) د/ص 277 .

(16) د/ص 275 - 276 - 277 .

- 21- فَعَامِلٌ رُمَحٌ دُقُّ فِي صَدْرِ غَامِلٍ وَقَائِمٌ سَيْفٌ قَرَّ فِي رَأْسِ قَائِمٍ
22- وَيَارُبُّ صَوَامِ الْهَوَاجِرِ وَاصِلٍ هُنَالِكَ مَصْرُومُ الْحَيَاةِ بِصَارِمٍ

وهؤلاء القتلى ، لئن فرقت السن بينهم ، فقد جمع بينهم بذل النفس جهادا واحتسابا ، قال الشاعر [الطويل] (17) :

- 20- أُصِيبُوا ، وَكَانُوا فِي الْعِبَادَةِ أُسْوَةً شَبَابًا وَشَيْبًا بِالْعَوَاشِي الْعَوَاشِمِ

والعزاء الوحيد الذي قد يهون ما في نفوس المسلمين من وجد على إختوتهم ، هو ما ينتظر هؤلاء الشهداء من جزاء عند ربهم (18) .

- 7- تَسَاقَوْا كُتُوبَ الْمَوْتِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى فَمَالَتْ بِهِمْ مِثْلَ الْمُصُونِ التَّوَاعِمِ
6- هُمُ الْقَوْمُ رَاحُوا لِلشَّهَادَةِ وَاعْتَدُوا وَمَالَهُمْ فِي فَوْزِهِمْ مِنْ مَقَامٍ

3 - اللجوء إلى التصارى :

لَمَّا قَرَّرَ المأمون الموحدي الانتقال من إشبيلية إلى مراكش سنة 1229/626 م ، انحصر الصراع في الأندلس في مرحلة أولى بين ابن هود من جهة وولاء الموحدين من جهة أخرى . وازدادت الأمور تعقنا عندما نجم نائر آخر من شرقي الأندلس وهو أبو جميل زيان بن أبي الحملات بن مردنيش ، وقام بطرد والي بلنسية من الموحدين وهو أبو زيد فاضطر هذا الأخير ، وقد انهارت السلطة الموحدية أو كادت بالأندلس ، إلى الالتحاق بالتصارى وكان معه كاتبه ابن الأبار . ويبدو أن هذا الوالي وحاشيته لم يتمكنوا ، وقد أجبروا على الخروج من ديارهم ، أن يصطحبوا معهم كل أهلهم وذويهم . فكان ذلك مما زاد في ألم المحنة ووطأة الغربة . قال الشاعر [البسيط] (19) :

- 1- الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا أَهْلٌ وَلَا وَلَدٌ وَلَا قَرَارٌ وَلَا صَبْرٌ وَلَا جَلَدٌ
2- كَانَ الزَّمَانُ لَنَا سِلْمًا إِلَى أَمَدٍ فَعَادَ حَرْبًا لَنَا لَمَّا انْقَضَى الْأَمَدُ

(17) د/ص 277 .

(18) د/ص 276 .

(19) د/ص 178 .

وما إن وصل ابن الأبار إلى مملكة أراغون مع سيده حتى ندم ، وبدأ حنينه إلى الأهل والوطن يُنغصّ عليه حياته في بلاد النصارى قال [الوافر] (20) :

- 1- إِلَى الْإِنْفَيْنِ مِنْ أَمَلٍ وَدَارِ تَأْوِينِي اشْتِيَاقِي وَادْكَارِي
- 2- وَحَنُّ الْقَلْبِ أَغْشَارًا إِلَيْهَا حَيْنُ الْوَالِهَاتِ مِنَ الْعِشَارِ

وقوي هذا الحنين في نفس الشاعر واشتدّ ، وبات ابن الأبار يشعر بغربة جسدية وهو البعيد عن الوطن والأهل ، وروحية وهو المسلم بين النصارى ، حتى أنّ إقامته في تلك الربوع أصبحت بمثابة الأسر والسجن له . قال [الكامل] (21) :

- 1- غَلَبَتْ عَلَيَّ لِبُعْدِكُمْ أَشْجَانِي وَجَفَا الْكَرَى مِنْ بُعْدِكُمْ أَجْفَانِي
- 5- أَسْرَ وَقَسْرَ لَا قَرَارَ عَلَيْهِمَا وَتَعَرُّبٌ عَنْ أَسْرَتِي وَمَكَانِي
- 4- لَوْ أَنَّ نَهْلَانَا تَحْمَلُ بَعْضَ مَا حُمَلْتُهُ خَرَّتْ ذُرَى نَهْلَانِ

ولمّا قرّر ابن الأبار مغادرة مملكة أراغون والانتقال إلى أرض الإسلام لم يتّجه مباشرة إلى بلنسية كما تُوهم بذلك المصادر التاريخية ، وإنّما اتّجه إلى شاطبة وبها أبو الحسين يحيى الخزرجي . وكان يحكم هذه المدينة باسم ابن هود ، كما كان في عدااء مع حاكم بلنسية ابن مردنيش الذي افتكّ منه مدينة دانية .

ويبدو من خلال ديوان ابن الأبار أنّ والي شاطبة هو الذي شجّع ابن الأبار على الانتقال من بلاد أراغون إلى شاطبة . قال الشاعر [الوافر] (22) :

- 14- أَمَا أَنَّ اللَّيَالِي غَالِيَاتٍ وَلَوْ يُغَرَى بِنَصْرِي الْفَرْقَدَانِ
- 15- إِذَا لَمْ أَلْقَهَا بِعَلَى ابْنِ عَيْسَى وَحَسْبِي مِنْ حُسَامٍ أَوْ سِنَانِ
- 16- فَلَسْتُ مِنَ الْإِيَابِ عَلَيَّ يَقِينِ وَلَسْتُ مِنَ الدَّهَابِ عَلَيَّ أَمَانِ
- 17- فَإِنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ يَنَالُ مِنْهَا مَنَالُ الدَّعْرِ فِي قَلْبِ الْجَبَانِ
- 18- يُنْهِنُهَا مَتَى نَهَدْتُ لِخَرْبِي وَيَأْخُذْ لِي الْأَمَانُ مِنَ الزَّمَانِ
- 19- وَعَلِمْتُ أَبَا الْحُسَيْنِ عَنَاهُ أَمْرِي فَأَنْسِي أَمْرُ خِدْمَتِهِ عَنَانِي
- 38- وَمِثْلُكَ رَقٌّ سُوْدُدُهُ لِمِثْلِي فَأَجْنَى رَاحَتِي شَمَّ الْأَمَانِي
- 39- وَرَاشَ جَنَاحِي الْمَقْصُوصُ ظُلْمًا وَأُنْسَانِي الْأَجْبَّةُ وَالْمَغَانِي

(20) د/ص 199.

(21) د/ص 327.

(22) د/ص 324 — 325.

ويبدو أنَّ الشاعر تعرّض إلى السلب وهو في طريقه إلى شاطبة . وهذا أمر ليس بالغريب في منطقة شرقي الأندلس وفي مثل تلك الظروف العصيبة التي اختلط فيها الحابل بالتابل . قال الشاعر يصف حاله وهو كالأسير في بلاط التصارى ، ويندب حظه وهو سلب في طريقه إلى شاطبة [الكامل] (23) :

- 7- وَكَفَّاكَ أَنَّ الرُّومَ كَانَتْ جِيرَتِي مِنْ جَوْرِ دَهْرِي وَاسْتِحَالَةِ خَالِي
8- كُنْتُ الطَّلِيحُ هُنَاكَ لَكِنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ شِدَّةِ الْحَسَرَاتِ فِي أَغْلَالِ
9- أَبْكِي عَلَى اسْتِفْصَالِ مَنْ خَلَقْتُهُ وَأُطِيلُ فِي الْأَسْحَارِ وَالْأَصَالِ
10- حَتَّى إِذَا فَارَقْتُ أَرْضَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عَقَالًا ثَانِيًا كَعِقَالِي
11- وَدَعَانِي الشُّوقُ الْمُذِيبُ جَوَانِحِي لِمَنَازِلِي فَأَجَبْتُهُ وَجَلَالِي
12- لَأَقْبِي بِبِي الْجَدُّ الْعُثُورُ عِصَابَةَ ذَهَبْتُ بِمَالِي كَنِي يَسُوءُ مَالِي
13- فَاسْتَأْنَفْتُ نَفْسِي بِحُكْمِ شَقَائِهَا خَوْضًا لِأَهْوَالِ عَلَى أَهْوَالِ

ويبدو أنَّ ابن الأبار ترك شاطبة بعد وفاة الخزرجي في شعبان 1237/634 وقصد بلنسية . وعليه لينال حظوة لدى ابن مردنيش أنَّ يتصلَّ من مخدميه أبي زيد الموحدي وأبي الحسين الخزرجي وأن يُشيد بالدعوة العباسية التي انضوى تحت رايتهما السوداء ابن مردنيش . قال يخاطبه [الطويل] (24) .

- 1- تُنَاضِلُ عَنْ دِينِ الْهُدَى وَتُدَافِعُ كَأَنَّكَ فِي الْهَيْجَاءِ أَبُوكَ (مُدَافِعُ)
20- يَسُرُّ بَنِي الْعَبَّاسِ خُلْعُكَ مَنْ غَدَا لِدَعْوَتِهِمْ مِنْ قَبْلِهَا وَهُوَ خَالِعُ
35- لِرَأْيَتِهِ السَّوْدَاءِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ قِيَامَ بِنَصْرِ الْحَقِّ أَبْيَضُ نَاصِعُ
39- أَمِيرُ الْعُلَى أَرْجُو وَمِثْلَكَ سَامِعُ أَمِيرُ الْعُلَى أَدْعُو وَمِثْلَكَ سَامِعُ

وتعرّض ابن الأبار سواء في شاطبة أو بلنسية إلى اللوم ، إذ رأى بعضهم في خروجه إلى أرض الروم منقصة ، فقال يردّ عليهم مبيناً أنَّ خروجه هو ضرب من الوفاء لمخدومه ، وأن ذلك لم يمسّ في شيء دينه ومعتقده . وذهب في الدّفاع عن نفسه إلى أنّه في خروجه إلى أرض الروم يشبه الصحابة من قرش الذين هاجروا إلى الحبشة .

(23) د/ص 250.

(24) د/ص 359 ، 1 - 360.

وابن الأبار يبالغ في قياسه لأن هؤلاء الصحابة هاجروا من أجل عقيدتهم مضطرين بينما التجأ هو من أرض الإسلام إلى أرض الكفر باختياره . قال ابن الأبار [البيسط] (25) :

- 1- قَالُوا : الْخُرُوجُ لِأَرْضِ الرُّومِ مُنْقَصَةً فَقُلْتُ : كَلَّا وَلَكِنْ صَادَهَا بَاءُ
- 2- إِذَا خَرَجْتُ وَفَاءً ثُمَّ عُذْتُ ثَقْيَ أَثْنْتُ بِفِعْلِي عُذَاتِي وَالْأَجْبَاءُ
- 3- وَكَانَ لِي فِي قُرَيْشٍ أُسْوَةٌ وَكَفَى مَعَ النَّجَاشِيِّ تَرْضَاهَا الْأَلْبَاءُ

4 - سقوط بلنسية :

لقد فتحت هزيمة أنيشة الطريق أمام خايمي الأول ملك أراجون ليحقق أمنية طالما راودته ، وهي الاستيلاء على عاصمة شرقي الأندلس بلنسية . وكانت هذه المدينة ، بعد أن سقطت كل الحصون التي كانت بمثابة الدرع الواقي لها ، قد أصبحت تعج بالآلاف المتساكنين من أهلها ومن قر تحت ضغط الزحف النصراني من أرباضها وقراها .

وبدأ خايمي الأول حصار بلنسية في 5 رمضان 21/635 21 أبريل 1138 بعد أن وصلت إليه الحشود النصرانية من جهات متعددة براً وبحرا .

لقد أثرت معركة أنيشة وما سبقها من أحداث في معنويات سكان بلنسية فلما وقع حصارها ثم سقوطها لم يكن ذلك - في نظر ابن الأبار - ناتجا عن قوة خارقة للعدو فقط ، وإنما كان كذلك نتيجة لانهايار معنويات أهلها أدى إلى شبه فراغ عسكري أشار إليه الشاعر [البيسط] (26) :

- 22- خَلَّالَهُ الْجَوُّ فَاْمْتَدَّتْ يَدَاهُ إِلَى إِذْرَاكِ مَا لَمْ تَطَّأ رِجْلَاهُ مُخْتَلِسًا
- 23- وَأَكْثَرَ الزَّعْمَ بِالتَّثْلِيثِ مُنْفَرِدًا وَلَوْ رَأَى رَايَةَ التَّوْحِيدِ مَا نَبَسَا

لقد أدرك النصارى نقطة الضعف هذه ، وهم يحاصرون بلنسية ، فأمعنوا على مرأى ومسمع من أهلها في إتلاف ما تأنقوا سنين طويلة في إقامته من حدائق ورياض خارجها . وعمدوا إلى الآلات المخربة يصوبونها على ما تفنن البلنسيون مدة في إشادته من معالم

(25) د/ص 55.

(26) د/ص 397.

عُمرانية داخلها . قال ابن الأثير يصف بداية هذا الحصار وما لحق المدينة المحاصرة من أضرار [البسيط] (27) :

- 14- وَأَرْبَعًا نُنَمْتُ أَيْدِي الرِّبْعِ لَهَا
15- كَانَتْ خَذَائِقَ لِلْأَخْدَاقِ مُؤَيَّنَةً
16- وَخَالَ مَا حَوْلَهَا مِنْ مَنْظَرٍ عَجَبٍ
17- سُرْعَانَ مَا عَاثَ جَيْشُ الْكُفْرِ وَآخَرِبَا
18- وَابْتَرَزَ بَرَزَتَهَا مِمَّا تَحِيفُهَا
19- فَأَيَّنَ غَيْشَ جَنِينَاهُ بِهَا خَضِيرًا
20- مَحَا مَحَاسِنَهَا طَاغَ أَتَيْحَ لَهَا
21- وَرَجَّ أَرْجَاءَهَا لَمَّا أَحَاطَ بِهَا
10- وَصَيَّرَ ثَمَرَهَا الْعَوَادِي الْعَابِثَاتُ بِهَا
- مَا شِفَتْ مِنْ خَلْعٍ مُوشِيَةٍ وَكُنْسَى
فَصُوحَ النَّظَرِ مِنْ أَدْوَاهِهَا وَعَسَا
يَسْتَجْلِسُ الرُّكْبُ أَوْ يَسْتَرْكِبُ الْجُلُسَا
غَيْثَ الدَّنِيِّ فِي مَغَانِيهَا الَّتِي كَبَسَا
تَحْيِفَ الْأَسَدَ الضَّارِي لِمَا أَقْرَسَا
وَأَيَّنَ غُصْنُ جَلِينَاهُ بِهَا سَلَسَا
مَا نَامَ عَنْ هَضْمِهَا جِنَا وَلَا نَعَسَا
فَعَادَرَ الشَّمَّ مِنْ أَعْلَامِهَا خُسُوسَا
يَسْتَوْجِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفَ مَا أُنَسَا

ولم يجد البلنسيون ، وقد ضيق التصاري عليهم الحصار برًا وبحرا ، من وسيلة للخلاص إلا الاستنجاد . واتجهت الأنظار في تلك الآونة إلى الدولة الحفصية بتونس ، بعد أن خبا كل أمل في دولة الموحدين بمراكش . ووصلت سفارة من أمير بلنسية أبي زيان إلى أبي زكريا الحفصي يقودها ابن الأثير . فبلغ هذا الكاتب الأندلسي بيعة شرقي الأندلس إلى الأمير الحفصي وأنشده سنيته المشهورة يحثه فيها على إدراك بلنسية وقد أخذ بمخفقتها العدو . وكان أهم وتر عزف عليه ابن الأثير لحن الاستغاثة ، والتر الدني . فهو على يقين من أن الدولة الحفصية الفتية تتوق إلى أن تحل محل الدولة الموحدية المحتضرة في دورها الدفاعي عن الإسلام والمسلمين . فها قد حانت الفرصة لها لتبرهن على أنها قادرة ، عن جدارة ، على القيام بهذا الدور . فالإسلام في الأندلس بمبادئه ومعالمه أصبح مهددا . [البسيط] (28) :

- 12- يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعَدَى بَيْعًا وَلِلنَّدَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا
13- لَهْفِي عَلَيْهَا إِلَى اسْتِرْجَاعِ فَأَيْتِهَا مَدَارِسَا لِلْمَنَانِي أَصْبَحَتْ دُرُسَا

(27) د/ص 7 - 396.

(28) المقرئ : ن / 4 / 457 - د/ص 396 . (ن = نفع الطيب) .

وقد تأثر الأمير أبو زكريا لقصيد ابن الأبار ، وبادر بتجهيز بعض قطع من الأسطول الحفصي . وشحنها بالسلاح والأطعمة والكسي والأموال وخرجت في اتجاه بلنسية . قال ابن الأبار وكله أمل في كسر شوكة العدو [الوافر] (29) :

- 1- ظَهِيَ رَاكُ التَّوَكُّلِ وَالْمَضَاءِ فَعُنُرُ الْكُفْرِ أَنَّ لَهُ انْقِضَاءُ
34- هَبَيْتَ أَعَامَ إِقْبَالِ جَدِيدٍ يُمْنِ طُلُوعِهِ عَمَّ الْهَنَاءُ
35- وَأَعْدَادُ لَغَزْوِ الشَّرِكِ تَزْكُو بَيْنَتِهِ الْمُتَوَبُّةُ وَالْجَزَاءُ
41- فَلِلثَّلَاثِ وَهْنٌ وَاتِّضَاعٌ وَلِلتَّوَحُّيدِ أَيْدٍ وَارْتِقَاءُ

لكن هذه الإعانة لم تصل إلى المدينة نظرا إلى مناعة الحصار المضروب حولها من كل الجهات وانتهى بها الأمر إلى أن أفرغت حمولتها في ثغر دانية بعيدا عن أرض المعركة .

ولم تستطع بلنسية ، بعد حوالي 7 أشهر من الحصار ، الاستمرار في المقاومة وقد نضبت أو تكاد مواردها الغذائية ، فبدأت المفاوضات مع ملك أراجون لتسليم المدينة صلحا على أن يؤمن أهلها في أنفسهم . وبعد أن ضبط نصر وثيقة الاستسلام دخل خايمي الأول بلنسية دخول الفاتحين متوجا بأكاليل الغار في 27 صفر 636/9 أكتوبر 1238 .

وهذه النكبة في هولها وشدتها كريح عاتية عصفت بكل نفس فركتها ترسل الآهات توجعا وتفجعا . قال ابن الأبار [البيسط] (30) :

- 3- كَزَعَزَ الرِّيحِ صَكَّ الدُّوْحَ عَاصِفُهَا فَلَمْ يَدْعُ مِنْ جَنَى فِيهَا وَلَا غُصْنُ
14- وَأَهَا وَأَهَا يَمُوتُ الصَّبْرُ بَيْنَهُمَا مَوْتَ الْمَحَامِدِ بَيْنَ الْبُحْلِ وَالْجُبْنِ

(29) د/ص 46 ، 9 — 48 .

(30) د/ص 1 — 320

لقد تسلط الأعداء ، بتغلبهم ، على مقدساتها فدنسوها ، وبربريتهم ، على معالمها الحضارية فخرّبوها ، وبوحشيتهم ، على بهجة الحياة فنقصوها . قال الشاعر [الكامل] (31) :

- 20- بِأَبْي مَدَارِسُ كَالطُّلُولِ دَوَارِسُ نَسَحَتْ نَوَاقِيسُ الصَّلَيبِ نِدَاءَهَا
21- وَمَصَابِعُ كَسَفِ الضَّلَالِ صَبَاحَهَا فَيَحَالُهُ الرَّائِي إِلَيْهِ مَسَاءَهَا
22- رَاحَتْ بِهَا الْوَرَقَاءُ تُسْمِعُ شِدْوَهَا وَغَدَتْ تُرْجِعُ نَوْحَهَا وَبُكَاءَهَا
26- أَمَا الْعُلُوجُ فَقَدْ أَحَالُوا حَالَهَا فَمَنِ الْمُطِيقُ عِلَاجَهَا وَشِفَاءَهَا
27- أَهْوَى إِلَيْهَا بِالْمَكَارِهِ جَارِحُ لِلْكَفْرِ كَرَّةَ مَاءَهَا وَهَوَاءَهَا

والشاعر ، لئن ألح على وصف قسوة التصارى في حصارهم للمدينة ، فقد أشار إلى تأهبهم للقتال واستعدادهم ونوّه بشجاعتهم وتفانيهم في المعركة . ولاح باللائمة على قومه . فقد أخطؤوا التقدير وتهاونوا ، وكفروا بالنعمة وبطروا . قال ابن الأبار في قصيدة مطلعها [البسيط] (32) :

- 1- وَطَنٌ عَلَى الدَّائِنِينَ : الدَّمْعُ وَالشَّجَنُ يَا نَادِبَ الدَّاهِيَيْنِ : الْأَهْلُ وَالْوَطَنُ
ثم أضاف واصفا التصارى لائما قومه :

- 10- زُرْقًا أَسَيَّتَهُمْ مِنْ جِنْسٍ أُغْنِيَهُمْ مُشْتَقَّةً مِنْ قِتَالِ الْفِرَاضِ وَالسُّنَنِ
11- قَدْ أَلْبَسُوا خَيْلَهُمْ أَمْثَالَ مَا أَدْرَعُوا وَاسْتَقْبَلُونَا حُصُونًا فِي ذَرَى حُصْنٍ
12- هُمْ أَخْرَجُونَا مِنَ الْأَوْطَانِ عَنْ حَقِّ وَرَزَحُوا عَنِ الْجِيرَانِ مِنْ ضَعْفٍ
13- فَكُنْمْ لَقِينَا عَلَى الْأُمْصَارِ مِنْ قَنَدٍ وَكَمْ تَرَكْنَا لَدَى الْكُفَّارِ مِنْ قَدَنٍ
17- أُنِيجَ لِلرُّومِ مَا وَقَى مَرَامِيَهُمْ فِيهَا بُؤْنَا بِطُولِ الْعَبْنِ وَالْعَبْنِ

(31) د/ص 5 — 34

(32) د/ص 1 — 320

وبلنسية عند هذا الشاعر جنة الخلد . ومن غرائب الأمور أن أصبحت الجنة — وهي مأوى المؤمنين — مرتعا لأهل النار من الضالين [الكامل] (33) :

23— عَجَبًا لِأَهْلِ النَّارِ خَلُّوا جَنَّةً مِنْهَا تُمُدُّ عَلَيْهِمْ أَفْيَاءَهَا

24— أُمَلِّكَ لَهُمْ ، فَتَعَجَّلُوا مَا أُمَلُّوا أَيَّامُهُمْ ، لَا سَوْغُوا إِمْلَاءَهَا

وكما خرج منها الإيمان ورحل ، ودخلها الكفر وثوى ، أصبح معروفها منكرا وقولها زورا وتقواها زيفا [الزمل] (34):

14— يَا لَسَاحَاتِ ثَوَاهُنُ الْعِدَى قَبْدَا الْمَعْرُوفَ مِنْهَا مُنْكَرَا

15— رَاحَ مَنْ آمَنَ عَنْهَا رَاحِلًا وَغَدَا يَخْتَلُهَا مَنْ كَفَرَا

16— فَغَرَّ الشَّرْكَ عَلَيْهَا فَمَهُ لَيْتَهُ الْقِمَمَ فِيهَا الْحَجَرَا

وأصبحت المدينة في أعماق نفس الشاعر موطن المتناقضات ، فهي محل الماء ومصدر العطش ومثوي الحب والكراهة ، ومكان الأنس والوحشة [الطويل] (35) :

1— بَلَنْسِيَّةُ يَا عَذْبَةَ الْمَاءِ وَالْجَنَى سُقِيتَ وَإِنْ أَشَقَيْتَ صَوْبَ الرُّوَاجِسِ

2— أَحِبُّ وَأَقْلَى مِنْكَ خَالًا وَمَاضِيَا بِمُوحِشَةٍ مَوْتَا بِعَهْدِ الْأَوَانِسِ

3— وَمِنْ عَجَبِ أَنَّ الدَّيَارَ أَوَاهِلَ وَأُنْدُبَهَا نَذَبَ الطُّلُولِ الدَّوَارِسِ

ويغلب اليأس على النفس ، وهي غارقة في بحر أحزانها ، فلم تعد ترى إلا حقيقة واحدة مرّة ولكن لا مفرّ من الإصداع بها : وهي أن ما ضاع من المكاسب يسقط بلنسية يصعب استرجاعه . قال ابن الأثير [كامل] (36) :

16— إِيَّاهُ بَلَنْسِيَّةُ وَفِي ذِكْرَاكِ مَا يُمَرِّي الشُّوُونَ دِمَاءَهَا لَأَمَاءَهَا

17— كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى اخْتِلَالِ مَعَاهِدِ شَبَّ الْأَعَاجِمُ دُونَهَا هَيْجَاءَهَا

(33) د/ص 5 — 34

(34) د/ص 186 .

(35) د/ص 400 .

(36) د/ص 34 .

ويضطّر الشاعر إلى الرحيل نهائياً عن بلنسية بعد سقوطها وليس له من أهل إلا ما سيجده لدى حاكم تونس الحفصي من أمن وإكرام وُعد بهما أو شعر وهو يمدح أنه سيحبوه بهما ، لو استقرّ بكفه وحلّ بجواره . قال الشاعر يصف البحر الذي ركبهُ مع عائلته [الطويل] (37) :

- 33— أَلَا حَبْدًا فَلَّكَ مَوَاحِرُ زَاخَمَتْ غَوَارِبَ طَامٍ لَا يُتْنَهُ طَامِخٍ
34— جَرَتْ فَوْقَ مَوَاجٍ كَالْجِبَالِ تَنَاوَحَتْ فَكَيْفَ نَجَتْ مِنْ نَوْجِهَا الْمُتَنَاحِرِ

ويعاني الشاعر في هذه الرحلة ألم الفراق لوطن محبوب ومشقة السفر في بحر مخيف مع عائلة عديد أفرادها شديد عبئها . [الطويل] (38) :

- 27— صَعَبًا لِلْمَعَالِي مِنْهُ (39) عَائِلٌ صَبِيحٌ
28— يُصَابِرُ ضَرَاءَ النَّوَابِ وَالنَّوَى وَتَطْوِي عَلَيْهَا الْكَشْحُ خَيْفَةً كَاشِحٍ
29— قَوَارِيرُ (40) لَمْ يَرَبَأْ بِهَا الْبَحْرُ سَابِقًا وَلَا ذَاذَ عَنْهَا الْبَرُّ حَمْلُ الْفَوَادِحِ
30— تَكَادَ عَلَيْهَا النَّفْسُ تَذْهَبُ حَسْرَةً إِذَا لَمَحَتْهَا الْعَيْنُ وَسَطَ الضُّحَاضِحِ (41)

ويغلب شعور الأبوة على ابن الأبار فينسى قليلا وطنه ويتركز شعوره على أبنائه وما يحيط بهم من أخطار [الطويل] (42) :

- 37— يَجْنُ جَنَانِي رَقَّةً لِأَجْنَةِ ثَوْتُ فِي بُطُونِ الْمُشْنَاتِ السَّوَابِحِ
38— وَتَطْوِي عَلَى نَارِ التَّلْهَبِ أَضْلَعِي وَحَامِي الْجَوَى مِنْ حَائِمَاتِ الْجَوَانِحِ
39— مُتَاحٌ مِنَ الْأَقْدَارِ مَزَقٌ شَمْلُهَا بِكَسْحٍ مُغِيرٍ أَوْ إِغَارَةٍ كَاسِحِ

(37) د/ص 125.

(38) د/ص 5 — 124

(39) الضّمير يعود على الممدوح وهو أبو زكرياء

(40) بناته

(41) البحر

(42) د/ص 125.

ويستقرّ الشاعر بإفريقيّة ويعيش من قريب أجواء البلاط الحفصي ، ويعاوده الحنين إلى وطنه البعيد ويحاول إخفاء مشاعره فلا يستطيع إلى ذلك سبيلا [الخفيف] (43) :

- 3- رَامَ أَنْ يُخْفِيَ الْعَرَامَ وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْ مِنْ إِبْدَاءِ خَافِيهِ بُدًّا
6- يَا سَقَى اللَّهِ لِلرَّصَافَةِ عَهْدًا كَنَسِيمِ الصَّبَا يَرْقُ وَيَنْدَى
9- لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرْجِعُ الدَّهْرُ عَيْشًا يَشْهَدُ الطَّيِّبُ أَنَّهُ كَانَ شَهِدًا
14- وَالثَّرِيَا بِجَانِبِ الْبَدْرِ تَحْكِي رَاحَةً أَوْ مَاتَ لَتَلْطِمَ خَدًّا

ويحنّ الشاعر خاصّة إلى الرصافة ببلنسيّة وهو المكان الذي قضى فيه سنين شبابه . لكن أتى الوصول إليه والعدوّ به مقيم ورايض [الكامل] (44) :

- 1- مَا لِلْهَوَى إِلَّا الرُّصَافَةَ مَارَبُ
44- وَأَخَفَ مَا حُمِلَتْ مِنْ عَبْءِ الْهَوَى
45- يَا مَنْزِلًا كَانَ الْحِفَاطُ يُجْلُهُ
46- أَهْوَى حُلُولِكَ ثُمَّ يَسْلُبُنِي الْهَوَى
47- أَصْبَحْتُ فِيكَ مُعَذَّلًا وَمُعَذَّبًا
بَعْدَ الْعَدِيرِ فَكَيْفَ يَصْنُفُو مَشْرَبُ ؟
أَنْ أُسْتَرِيحَ إِلَى مَطَامِعِ تَتَعَبُ
وَالْجُودُ بِالضَّيْفَانِ فِيهِ يُرَحَّبُ
أَنْ الْعُدُوَّ بِجَانِبَيْكَ مُطَنَّبُ
وَكَذَا الْمُحِبُّ مُعَذَّلٌ وَمُعَذَّبُ (45)

ويخلق هذا التمزّق النفسي حالة مرضيّة لدى الشاعر . فهو عاجز عن التسيان وغير قادر على الرجوع [الوافر] (46):

- 1- إِلَى أَوْطَانِهِ حَنْ الْعَمِيدُ
2- وَمَسْقَطَ رَأْسِهِ ذَكَرَ اشْتِيَاقًا
3- وَلَوْ دَامَ السُّلُوكُ أَبَتْ عَلَيْهِ
فَظَلَّ كَأَنَّهُ غُصْنٌ يَمِيدُ
فَذَابَ فُؤَادُهُ وَهُوَ الْحَدِيدُ
مَعَاهِدُ . عَهْدُهَا الْمَاضِي حَمِيدُ

(43) د/ص 175.

(44) د/ص 59 ، 3 - 62

(45) د/ص 66

(46) د/ص 177

وأشد ما يؤلم الشاعر هو ضياع الدّين بضياع الوطن . لقد كان لهذا الدّين في بلنسية وغيرها من أرض الأندلس من يحميها وينصرها كالحاجب القوي المنصور بن أبي عامر . لكن ما إن ذهب منصور الإسلام حتى زحف سفاح التّصاري . قال [الكامل]⁽⁴⁷⁾ :

7- قَدْ أَسْلِمَ الْإِسْلَامُ فِيهِ إِلَى الْعَدَى فَأَسَاءَهُ بَزَحٌ لَا يُمَاحُ بَرَاخُهُ
8- لَمَّا تَحَجَّبَ فِي النَّوَى مَنصُورُهُ أُنْحَى عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ سَفَاخُهُ

ولم يبق للشاعر وقد غلب اليأس وأطبق القنوط إلّا البكاء على وطن ضاع إلى الأبد [الوافر]⁽⁴⁸⁾ :

7- يَشْتُقُّ عَنْ أَهْلِي تَرْوِجِي وَيَعْلِيْنِي إِلَى وَطَنِي تَرْوِجِي
8- فَكَمْ أَبْكِي الدَّيَارَ وَسَاكِينَهَا بِطَرْفِ مُسْعِدٍ وَدَمٍ هُمُوعِ

5 - سقوط إشبيلية :

لقد أصبح الموقف في غربي الأندلس على درجة كبيرة من الخطورة في بداية العقد الرابع من القرن 13/7 بعد سقوط كامل شرقي الأندلس بيد أراجون . فملك قشتالة سيعمل على أن يظهر بأنه لا يقلّ حماسا عن ملك أراجون في حركة الاسترجاع المسيحية . ولهذا ما فتئ يتطلّع بنظره إلى إشبيلية عاصمة الموحّدين بالأندلس بعد أن استولى على قرطبة عاصمة الخلافة الأموية بها .

وكان الوضع الداخلي بإشبيلية عاملا مشجعا لهذا الملك التّصرائي على تحقيق ما تصبو إليه نفسه ، نتيجة للصّراعات الدّاخلية المتتالية بها . وكان سكان إشبيلية على يقين أنّ دورهم في حركة الاسترجاع التّصرائي سيأتي ، وكانوا مقتنعين بأنّ مدينتهم لا تستطيع أن تقف بمفردها لمواجهة الخطر التّصرائي ، ولهذا وقع الاستنجد بالدولة

(47) د/ص 131.

(48) د/ص 365.

الموحديّة بعد الرّجوع إلى طاعتها سنة 1237/635 . ولَمَّا رَأَوْا ضَعْفَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ انضَمُّوا تَحْتَ لُؤَاءِ الدَّوْلَةِ الحَفْصِيَّةِ آمِلِينَ أَنْ تَصْلَهُمُ النِّجْدَةُ مِنْ لَدُنْهَا .

ولقد تَسَبَّبَ وَصُولُ الْوَالِيِّ الحَفْصِيِّ الَّذِي أَرْسَلَهُ أَبُو زَكْرِيَا إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ فِي فَتْنَةٍ أَذَتْ إِلَى مَقْتَلِ ابْنِ الْجَدِّ حَاكِمِ الْمَدِينَةِ ، فَاتَّخَذَ فَرْدِيْنَانْدُ الثَّالِثُ مَلِكُ قَشْتَالَةِ ذَلِكَ ذَرِيْعَةً لَغَزْوِ الْمَدِينَةِ . وَبَدَأَ فِي أَوَائِلِ 1246/644 بِالْهَجُومِ عَلَى قَوَاعِدِهَا الْأَمَامِيَّةِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا فِي سَنَةِ 1247/645 وَحَاصَرَهَا بَرًّا وَبَحْرًا . وَفِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ 5 شَعْبَانَ 646/23 نَوْفَمْبَرِ 1248 وَقَعَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى تَسْلِيمِ الْمَدِينَةِ عَلَى أَنْ يَغَادِرَهَا أَهْلُهَا فِي ظَرْفِ شَهْرٍ .

ووصلت هذه الأنباء المؤلمة إلى البلاط الحفصي ، لقد افتكت المدينة وهي خاضعة — ولو إسميًا — إلى الحفصيين . فهل يعتبر هذا من باب الاعتداء عليهم ؟

إِنَّ قَصِيدَةَ مَدْحِيَّةٍ فِي دِيْوَانِ ابْنِ الْأَبَّارِ تُوْحِي بِأَنَّ حُكَّامَ تُونِسَ أَصْبَحُوا عَلَى يَقِيْنِ بِوُجُوبِ الْعُبُورِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ لِلْقِيَامِ بِوَاجِبِ الْجِهَادِ . فَالْأَنْدَلُسُ تَعِيشُ فِي ظُرُوفٍ شَبِيْهَةٍ بِمَا عَاشَتْهُ مَعَ مَلُوكِ الطَّوَاتِفِ قَبِيلِ الرِّلَاقَةِ . وَتَعِيشُ فِي مَنَاخٍ عَسْكَرِيٍّ شَبِيْهِ بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبِيلُ عَبُورِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَيْهَا . فَالْفُرْصَةُ سَانِحَةٌ إِذَا لِإِعَادَةِ (أَرْك) ثَانِيَةٍ وَأَخَذَ الثَّأْرَ مِنَ (الْعَقَابِ) وَالظَّاهِرُ بِمُظْهَرِ الْمُنْقَذِ لِلْأَنْدَلُسِ كَمَا ظَهَرَ يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينٍ بِطَلِّ مَعْرَكَةِ الرِّلَاقَةِ وَالْمَنْصُورِ الْمُوْحَدِيِّ بِطَلِّ مَعْرَكَةِ الْأَرْكِ . قَالَ ابْنُ الْأَبَّارِ [المديد] (49) :

- | | |
|--|---|
| 1- أَذْنْتُ أَرْضُ الْعِدَى بِافْتِسَاحِ | هَلْ وَرَاءَ اللَّيْلِ غَيْرُ الصَّبَاحِ |
| 5- إِنَّ لِلتَّوْحِيدِ غَزْمًا صَحِيحًا | يُوسُوعُ التَّلِيثِ كَرًّا اكْتِسَاحِ |
| 6- وَيُسَاقِي الصُّفْرَ حُمْرَ الْمَنَآيَا | بِالصُّعَادِ السُّنْرِ أَوْ بِالصُّفَّاحِ |
| 7- وَوَعَدْتُ أَنْدَلُسَ مِنْهُ بِيَوْمٍ | هِيَ لِاسْتِقْبَالِهِ فِي ارْتِيَاحِ |
| 8- كُلِّ أَزْمٍ قَبْلَهُ وَأَنْبَهَامِ | لَا تُفَرَّاجُ بَعْدَهُ وَأَتَضَّاحِ |
| 9- إِنْ يَكُنْ عَيْدًا لِنَحْرِ وَذَبْحِ | كَيْفَ شَاءَتْ فَلِأَعَادِي أَضَاجِي |
| 10- بِالْفَسَادِ اعْتَمَدُوا كُلُّ صُنْعِ | وَعَلَى الْهَادِي مَعَادُ الصَّلَاحِ |
| 11- أَحْمَى حَمَصٍ أَبَاحُوا جَهَارًا | وَجَمَاهَا لَمْ يَكُنْ بِالْمُبَاحِ |
| 12- لَا وَيَخْبِي الْمُرْتَضَى . لِأَهْنَاهُمْ | بِالْيَمِّ الْقَرْحِ وَرُذُ الْقَرَّاحِ |
| 13- إِنَّمَا يُرْقُبُ مِيقَاتِ فَتْحِ | هُوَ آتٍ فِي ضَمَانِ النَّجَاحِ |

إن العوامل المشجعة على العبور كثيرة وأهمها استتباب الأمن داخلياً ، وبه يكون المنفذ قد جمع بين الشرعية الزمنية بانتمائه إلى عدي بن كعب جد عمر بن الخطاب ، والشرعية الآتية بقضائه على جميع الثورات والفتن . ولم يبق له إلا أن يحقق المجد عن طريق الجهاد في الأندلس . قال الشاعر [المديد] (50) :

- 32- هَذِهِ الْعُرْبُ اسْتَكَاثَتْ وَكَاثَتْ فِي الثَّعَاصِي مَثَلًا وَالْجَمَاحِ
36- ذَوْلَةٌ خَفِصِيَّةٌ فِي اقْتِبَالٍ وَعُلَى مَهْدِيَّةٌ فِي طَمَاحِ
37- مُتَنَاهَا فِي عَدِيٍّ بَنِي كَعْبٍ وَذَرَاهَا فِي الْبَابِ الصَّرَاحِ
ويشير الشاعر في ديوانه أن الأسطول الحفصي عبر فعلا مضيق جبل طارق في محاولة لإنجاد أهل الأندلس عامة وأهل حمص خاصة . فهل تم فعلا ذلك ؟ قال [المديد] (51) :

- 18- دَغُ اسَالِيْبُ النَّسِيْبِ وَخُذْ فِي اسَاطِيْرِ اسَاطِيْلِ
19- أَخْرَاثُ الْخَيْلِ سَابِحَةٌ ذَاتُ تَرْيَدٍ وَتَرْيَدِ
22- لَا تَزَالُ الْعُجْمُ تُعْجِمُهَا طَيِّ تَعْجِيْزٍ وَتَعْجِيْلِ
24- حَلَقَتْ مُخْتَلَةً بِهِمْ شَرُّ تَخْلِيْدٍ وَتَخْلِيْلِ
25- وَسَلَتْ بَحْرَ الْمَجَازِ بِمَا طَرِبَتْ كَالْتَّيْبِ لِلتَّيْلِ
26- عَزَمُهَا وَالرُّومُ بِالْعُدْوَى يَنْ تَجْدِيْدٍ وَتَجْدِيْلِ
33- مَا أَلَوْ الْقُرْآنُ إِنْ صَدَقُوا عَزَمُهُمْ مِنْ جِلِّ إِنْجِيْلِ
34- بِالْجَوَارِي الْمُنْشَأَتِ لَهُمْ جَرِي تَبِيْعٍ وَتَبِيْعِ
39- خَالَقَتْ يَحْيَى خَلِيقَتَهُ حُسْنُ تَأْيِيْدٍ وَتَأْيِيْلِ

وبقي الشاعر يحنّ إلى إشبيلية بعد سقوطها ، كما بقي يحنّ إلى بلنسية مسقط رأسه دون قدرة على الرجوع إليهما كالطائر المقصوص الجناح لا قدرة له على الطيران . قال [الطويل] (52) :

- 20- يُسَالِلُ عَنْ نَجْدِ صَبَاهَا مُعَاشِرٍ وَأَسْأَلُ عَنْ حِمَصِ الثَّعَامِي وَأَسْتَقْصِي
21- وَلَوْ كُنْتُ مُؤَفَّرَ الْجَنَاحِ لَطَارَ بِي إِلَيْهَا وَلَكِنْ حَصَّةُ الْيَمْنِ بِالْقَصْ

(50) د/ص 121

(51) د/ص 4 - 233

(52) د/ص 331

6 — علاقته بأمراء الأندلس :

لا شك أن ابن الأثير ربط علاقات ودّ وصداقة مع كثير من الأمراء والوزراء بالأندلس فزيادة على من خدمهم بقلمه من حكام بلنسية وشاطبة ، كانت له مراسلات مع بعضهم الآخر . ومن هؤلاء هناك :

أ — أبو علي عمر بن أبي موسى والي جيان : وقد راسل الشاعر وهو بإفريقية عندما كان واليا على بجاية أو المهدية⁽⁵³⁾ . ومن هذه المراسلات ما كتبه مع تمر أهدها إلى ابن الأثير [الطويل]⁽⁵⁴⁾ :

1— أَثْنُكَ خَلِيقَاتٍ بِحُسْنِ الْخَلَائِقِ بِهَا غُنْيَةٌ عَنْ كُلِّ مَا فِي الْحَدَائِقِ
فأجابه ابن الأثير [الطويل]⁽⁵⁵⁾ :

1— أَمْوَلَايَ حَقَّ الْعَبْدِ تَقْرِيرُ غُذْرِهِ إِذَا هُوَ لَمْ يَلَقَ الْحُقُوقَ بِلَائِقِ
6— كَانَ الَّذِي تُهْدِيهِ مِنْ ثَمَرِهَا اغْتَدَى بِرِيقَةٍ مُؤْمُوقٍ وَرَقَّةٍ وَأَمِيقِ
7— مَنَنْتَ بِهَا مَنُثُورَةً وَشَفَعْتَهَا بِمَنْظُومَةٍ كَالْعَقْدِ فِي نَحْرِ عَاتِقِ
فرد أبو علي منوها بقطعة ابن الأثير هذه [الطويل]⁽⁵⁶⁾ :

1— أَثْتُ فَخَبًا مِنْ ثُورِهَا نُورُ شَارِقِ وَلَا حَتَّ فَلَمْ يُلْمَخْ وَمِیْضُ لِبَارِقِ
2— وَجَاءَتْ مُوشَاةٌ مِنْ أَقْلَامِكَ الَّتِي بِرِيقَتِهَا رَأَتْ صِفَاخَ الْمَهَارِقِ
فأجابه ابن الأثير مشيدا بشعر أبي علي [طويل]⁽⁵⁷⁾ :

1— لِمَنْ كَلِمٌ كَاللُّؤْلُؤِ الْمُتَنَاسِقِ لَهَا فَضْلٌ مَوْصُوفَاتِهَا بِنَاسِقِ
4— يَجِيشُ بِهَا بَحْرٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّدَى حَبَا كُلِّ أَفْقٍ مِنْ حُلَاهُ بِفَائِقِ

(53) تولى أبو علي هذا ولاية بجاية للدولة الحفصية ثم انتقل منها إلى المهدية في رجب 1240/638 (الحلة : 2/282) .

(54) المصدر السابق ص 285 .

(55) د/ص 4 — 453 .

(56) الحلة : 2/ص 287

(57) د/ص 454

ب — سعيد بن الحكم حاكم منورقة⁽⁵⁸⁾ : من الصَّعب القول إن ابن الأَبَّار اتَّصل بهذا الأمير وهو بجزيته . والرَّاجح أنَّ الشَّاعر راسله وهو مقيم بإفريقية لِمَا سمعه عن بلاطه الذي أصبح ملاذاً لأدباء العصر وعلمائه بعد سقوط ميورقة ومنطقة شرقي الأندلس بيد أراغون . ونجد في ديوان ابن الأَبَّار ثلاث مقطوعات مدحية في هذا الأمير الذي استطاع بحنكته أن يحتفظ بحكم هذه الجزيرة حوالي نصف قرن إلى أن توفي سنة 1272/680 . قال ابن الأَبَّار مؤكداً على خصال تُحلى بها سعيد بن الحكم ، قلَّ وجودها في ذلك الزَّمن [الخفيف]⁽⁵⁹⁾ :

- 1- سَيْدٌ أَبْدَ رَيْسٍ رَيْسٍ فِي أُسَارِيَرِهِ صِفَاتُ الصَّبَاحِ
- 2- قَمَرٌ فِي أَفْقِ الْمَعَالِي تَجَلَّى وَتَحَلَّى بِالسُّودِّ الْوَضَاحِ
- 3- سَلَّمَ الْبَحْرُ فِي السَّمَاحَةِ مِنْهُ لِحَوَادِ سَمُوهُ بَحْرَ السَّمَاحِ

وهي خصال سياسية بالدرجة الأولى مكنته من تجنُّب الغزو التُّصْراني . وكان ذلك في متناول أيديهم [معجزو الرجز]⁽⁶⁰⁾ :

- 1- إِنَّ سَعِيدَ بْنَ الْحَكَمِ صِنُو الْعُلَى نَجَلُ الْكَرَمِ
- 2- رَيْسٌ رَاسَةٌ بِمِثْلِهِا يُفَاخِرُ السَّيْفَ الْقَلَمِ
- 3- وَسُودَّدَ مَجْمُوعَةً فِيهِ مَخَاسِنُ الشُّيُومِ

ولكن كان ابن الأَبَّار معجباً بخصال هذا الأمير ، فلا شكَّ أنَّه كان ينتظر أن يصله منه بعض هباته ، خاصة وقد عاش في إفريقية — عندما كان مغضوباً عليه — فترات صعبة . قال مؤكداً على كرم سعيد بن الحكم [الوافر]⁽⁶¹⁾ :

- 1- كَانَ غُلَاكُ أَفْلَاكُ وَفُلُوكُ بِأَرْزَاقِ الْبَرِّيَّةِ جَارِيَاتُ
- 2- كَانَ هَبَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَغَدِ تَنَائِجُ مَا لَهَا مِنْ مُقَدَّمَاتُ
- 3- وَمَهْمَا اهْتَزَّ جَيْشُكَ نَحْوَ جَيْشِ فَأَنْتَ سِنَائُهُ وَهُوَ الْقَنَاءُ

(58) هي إحدى الجزر الثلاثة من الجزائر الشرقية وهي : ميورقة ومنورقة ويايسة .

(59) د/ص 129 .

(60) د/ص 459 .

(61) المطرب ص 179 .

ويبدو أن هذا الأمير — وهو الأديب — يجيب أحيانا ابن الأبار شعرا، فقال صاحب الحلة ردًا على إحدى مقطوعاته مؤكداً على حماية سعيد بن حكم لجزيرة منورقة بتأمين العباد وفك الرقاب . قال [الكامل] (62) :

- 1- بَلِّغْ الْجَزِيرَةَ (63) أَقْبَلْتُ ثَنِيهَا سَحَبٌ ثَنَالٌ يَسْقِيهَا ثَنِيهَا
- 4- أَلِفْتُ أَبَا عُثْمَانَهَا (64) ذَا سِيرَةٍ عُمَرِيَّةٌ ثَوَلِيهِ مَا يُولِيهَا
- 8- فَكَّ الرِّقَابَ صَنَائِعًا مُذْ قَامَ لَمْ يَنْفَكْ يَأْبِيهَا كَمَا يُؤْنِيهَا

7 — التحريض على الجهاد بالأندلس :

لقد أصبحت مشاعر ابن الأبار وأحاسيسه بعد سقوط بلنسية أولاً ثم إشبيلية ثانية مركزة في وطنه السليبي وأهله المشردين . وأدرك الشاعر ، وقد ساء مزاجه ، أن حكام العدو الإفريقية قد تخلّوا عن هذا الوطن أو كادوا . لذا عليه واجب مقدس هو إذكاء جذوة الحمية في نفوس هؤلاء الحكام لعلهم يقومون بما يفرضه عليهم واجب الأخوة والدين والجوار .

والشاعر نفسه وهو يحرض البلاط الحفصي على نجدة الأندلس ، بين يأس من النتيجة وأمل فيها . قال وهو في الحالة الأولى مخاطباً أبا زكريا الحفصي [البيسط] (65) :

- 1- أَذْرِكُ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَذْذَلْنَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا
- 2- وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُتَمَسَا
- 3- وَحَاشَ مِمَّا تُعَانِيهِ حُشَاشَتُهَا فَطَالَ مَا ذَاقَتْ الْبَلَاوى صَبَاحَ مَسَا
- 4- يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزَرَا لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسَا
- 7- تَقَاسَمَ الرُّومُ لَا تَأَلَتْ مَقَاسِمُهُمْ إِلَّا، عَقَائِلُهَا الْمَخْجُوبَةُ الْأُنْسَا

(62) د/ص 462 .

(63) جزيرة منورقة .

(64) كنية سعيد بن حكم .

(65) د/ص 395

وفي الحالة الثانية قد يقوى الأمل في نفسه إلى درجة أنه يعتقد أن أهل الأندلس سيأتي يوم يأخذون فيه بثأرهم من التصارى بإعانة الحفصيّ . قال [الزمل] (66) :

- 16- إِنْ يَكُنْ طَاغِيَةُ الرُّومِ بَعَى فَظُبَى الْهِنْدِ لَهُ بِالْمَرْصَدِ
18- غَرَّهُ الْبُعْدُ وَعَنْ قُرْبٍ يَرَى جِزْيَةَ الْكُفْرِ تُؤَدَّى عَنْ يَدِ
19- سَوْفَ تَغْشَاهُ الْجَوَارِي مِلْؤُهَا مَلَاكَ الْأَسَدِ ذَاتِ اللَّبِيدِ

ومن العناصر الأساسية في التحريض لدى ابن الأبار هو التأكيد على الحالة المزرية التي أصبح عليها أهل الأندلس وانعقاد أملهم الوحيد في أبي زكرياء وفي نجلته ومروته . قال [الطويل] (67) :

- 19- وَيَا لِرَضَى أَرْضِ الْجَزِيرَةِ بِالَّذِي تَيَمَّمَهَا يَنْهَى لَهَا الْقُرُورَ بِالْأَهْنَا
20- فَأَنْدَلُسٌ قَدْ بُشِّرَتْ بِلِقَائِهِ تَرَقَّبُ مِنْ تَلْقَائِهِ الْقُلُوكَ وَالسُّفُنَا
21- لِنَصْرَتِهِ مَا أَشْرَفَتْ رَاسِيَّاتُهَا وَمَا صَيَّرَتْ عِلْمًا يَقِينًا بِهَا الظُّنَا
22- لَعَلَّ بِلَادًا حَالَ بِالرُّومِ حُسْنُهَا يُعِيدُ عَلَيْهَا غَزْوَهُ الظَّافِرُ الْحُسْنَا
23- فَيَرْتَشِفُ الْعَادِي بِهَا الْمَاءَ سَلْسَلًا وَيَعْتَبِقُ الضَّاحِي النَّسِيمَ بِهَا لَذْنَا
24- وَعَانٍ عَلَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ دِيَارُهَا بِمَا مُنِيتْ مِنْهُمْ قَدِيمًا وَمَا تُمْنَى
25- تُوْمَلُ يَحْيَى الْمُرْتَضَى لِحَيَاتِهَا وَتَرْجُو بِلْقَائِهِ الْإِقَالَةَ وَالْمَنَّا

والأندلس ، في نهاية الأمر ، جزء من الدولة الحفصية بعد وصول بيعتها إليه . ويكفي الممدوح أن يأذن لبعض القبائل المناصرة له من دباب وعوف حتى يغيروا واقع المعركة ويردّوا كيد العدو في نحره . قال ابن الأبار [الكامل] (68) :

- 4- هِيَ دَارُكَ الْقُصُوى أَوْثَ لِإِيَالِهِ ضَمِنَتْ لَهَا مَعَ نَصْرِهَا إِبْوَاءَهَا
13- طَافَتْ بِطَائِفَةِ الْهُدَى آمَالُهَا تَرْجُو بِيحْيَى الْمُرْتَضَى إِحْيَاءَهَا
30- مَوْلَايَ هَاكَ مُعَادَةَ أُبَاءَهَا (69)

(66) د/ص 152

(67) د/ص 298

(68) د/ص 33 - 34 - 35 - 36 .

(69) أي أن ما ذكره هنا كان قد قاله في قصيدته السينية .

- 35- تَالَلُو لَوِ ذُبْتُ لَهَا (ذُبَّاهَا) لَطَوْتُ عَلَيْهَا أَرْضَهَا وَسَمَاءَهَا
36- وَلَوْ اسْتَقْلْتُ (عَوْفَهَا) لِقِتَالَهَا لَا اسْتَقْبَلْتُ بِالْمَقْرَبَاتِ عَفَاءَهَا
47- هَذِي رَسَائِلُهَا تُتَاجِي بِالْيَمِي وَكَفْتُ عَلَيْهَا رَيْثَهَا وَنَجَاءَهَا

وبلاد الأندلس تعودت من الممدوح هذه التجارة وتلك المروءة . فكم مرة نادته
ولبي نداها وحباها بالكثير من عنده [الطويل] (70) :

- 25- وَمِنْ قَبْلِ مَا اسْتَقْبَلْتُكَ أَنْدَلُسُ فَلَمْ تَجِدْ جُودَكَ الْفَيَاضَ غَيْظًا وَلَا بَرْضًا (71)

والشاعر وهو يحرض على نصره الأندلس وإنقاذها من براثن العدو يشير إلى اصطدام
الأسطول الحفصي بالأساطيل النصرانية . ولكن يغلب على الظن أن ما ذكره الشاعر
من انتصارات لهذا الأسطول هو من باب ما يأمله ويترقبه لا من باب ما تم فأبهجه
وأسعده . قال [الطويل] (72) :

- 42- سَوَابِحُهُ عَمَّ الْأَعَادِي عَدُوَهَا بَوَارًا ، وَأَسْمَى السَّعْيِ مَا انْتَضَمَ الْبِرَّ
43- سَمَتْ لِأَسَاطِيلِ النَّصَارَى فَفَهَقُوا لِتَصَوِيرِهَا مُسْتَقْبِلِينَ بِهَا الْقَهْرَ
45- وَرَامَتْ لُيُوثُ الرُّومِ فَتَحًا كَوَاسِرًا فَمَا وَجَدُوا نَصْرًا وَلَا عِدْمًا هَضْرًا
46- أَرَأَيْتَ عَلَى الدَّمَاءِ حُمْرَ دِمَائِهِمْ فَرَأَيْتَ شَقِيقًا فِي الْبَنْفَسِجِ مُحْمَرًا

وهذا الأسطول بما حققه من انتصارات أخاف العدو ، فأرسل الوفود تطلب هدنة
وسلما مع صاحبه ، فهل تم ذلك فعلا ؟ أو أن الشاعر يريد رفع معنويات ممدوحه
بعد أن أرسل أسطوله لإعانة بلنسية المحاصرة . قال ابن الأثير [الطويل] (73) :

- 60- وَهَذِي مُلُوكُ الرُّومِ تُشْخِصُ رُسُلَهَا بِسِلْمِكَ تُبْغِي لِلْسَّلَامَةِ سُلْمًا
61- بِطَاغِيَةِ الْكُفَّارِ أَبْرَحَ ذَلَّةً تُجَشِّمُهُ مِنْ حَمْلِهَا مَا تَجَشَّمَا
64- تُصَوِّرُ تَجْهِيزَ الْأَسَاطِيلِ نَحْوَهُ فَحَيَّعَلْ بِالْمَنْجَاةِ مِنْهَا وَهَلَمَّمَا

(70) د/ص 347 .

(71) البرض : الماء يسيل قليلا .

(72) د/ص 8 — 207 .

(73) د/ص 3 — 272 .

- 65- وَأَفْصَحَ يَتْلِي خَاطِبًا فِي خِطَابِهِ وَمَا أَتَفَكَ ، لَوْلَا السَّيْفُ أَغْجَمَ طَنْطِمًا
66- فَهِيَ هُوَ إِنْ لَمْ يَحْظَ مِنْكَ بِذِمَّةٍ تَعَلَّقَهُ ظَفَرُ الْمَنَائِبِ مُذْمَمًا
68- سَيَاتِي بِرَأْسِ الْكَافِرِ الْكَافِرِ الَّذِي يَطْمُ عَلَيْهِ الْمُنَشَّاتُ إِذَا طَمًا

8 - بيعة مدن الأندلس لأبي زكريا :

هناك ثلاث عوامل رئيسية أدخلت الاضطراب والفوضى إلى الأندلس في النصف الأول من القرن 13/7 وخاصة بعد هزيمة العقاب :

1 - قرار المأمون الموحدى الانتقال من إشبيلية إلى مراكش وترك الأندلس لمصيرها .

2 - تناحر زعماء الأندلس فيما بينهم تارة ، وبينهم وبين من بقي من ولاة الموحدين أحيانا .

3 - التكالب التصراني بعد أن لاح جليًا الفراغ العسكري بضعف الدولة الموحدية ، وتناحر ثوار الأندلس .

وفي هذا الظرف العصيب ، كان كلّ ثائر يحقق بعض الانتصارات يحاول أن يوطد نفوذه بإيجاد السند الشرعي له . فكانوا يعلنون ولاءهم الشكلي إلى إحدى الدول الآتية : الدولة العباسية البعيدة أو الدولة الموحدية المنهارة أو الدولة الحفصية الفتية . ولا شك أنّ هذه الأخيرة كانت أقدر من غيرها ، في نظر الأندلسيين ، على القيام بدور الحامي والمنقذ لبلادهم . لهذا كثيرا ما لجأت إليها بعض المدن الكبرى الأندلسية وأعلنت الانضواء تحت لوائها .

ويبدو أنّ شرقي الأندلس كان أسبق الجهات بالأندلس للدخول في طاعة الحفصيين أملا من ذلك خلاصا على أيديهم وقد تكالب نصارى أراغون عليه .

وعاش الشاعر هذه الفترة وترأس الوفد الذي أمّ حاضرة الحفصيين حاملا البيعة وطالبا التجارة . قال ابن الأبار معتبرا أنّ بلنسية عاصمة شرقي الأندلس هي جزء من بلاد الحفصيين [البسيط] (74) :

- 30- هَذِي رَسَائِلُهَا تَدْعُوكَ عَنْ كَثْبٍ وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَرْجُوٍّ لِمَنْ يَسْأَلُ
60- يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ أَنْتَ لَهَا عَلِيَاءُ تُوسِعُ أَعْدَاءَ الْهُدَى نَعْسًا

- 62- طَهَّرَ بِأَذْكٍ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسٌ وَلَا طَهَّارَةَ مَا لَمْ تَغْسِلِ النَّجَسَا
63- وَانْصَرَّ عَبِيدًا بِأَقْصَى شَرْقِهَا شَرِقَتْ عُيُونُهُمْ أَذْمَعًا تَهْمِي زَكَا وَخَسَا

وخلال هذه الفترة بعث ابن الرميبي بعد قتله لابن هود حاكم الأندلس سنة 1237/635 ببيعته لأبي زكرياء . فقال ابن الأبار [الطويل] (75) :

- 1- أَوَائِلُ فَتْحِ مَا لَهُنَّ أَوَاخِرُ تَرَامَتْ بِهَا جُرْدٌ وَفَلَكَ مَوَاحِرُ
9- تَعَوَّدَ يَحْيَى الْمُفْرَضَى دَرَكَ الْمَنَى وَلَا هُزَّ خَطَطِي وَلَا سُلُّ بَاتِرُ
47- هَبْنِيَا مَرِيئًا لِلْمَرْيَةِ أَنْ أَوْثَ إِلَى مَظْهَرٍ تَنْحَطُّ عَنْهُ الْمَظَاهِرُ

وفي سنة 1242/640 وقع حدثان كبيران : الأول وفاة الخليفة الموحد الرشيد . والثاني فتح أبي زكريا الحفصي لتلمسان عنوة من يد صاحبها يغمراسن ، وبذلك أصبح الأمير الحفصي أقوى رجل بإفريقية ، وهابه أعداؤه في الداخل والخارج ، وجاءته بيعة عديد المدن من العدوتين الإفريقية والأندلسية . قال ابن الأبار مشيرا إلى ذلك [السريع] (76) :

- 1- ثَلَاثَةٌ حَيَّتْكَ فِي الْأَرْبَعِينَ نَصَرٌ وَتَمَكِّيْنٌ وَفَتْحٌ مُبِينٌ
2- أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي دَوْلَتُهُ يُمْنٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

ووجد ابن الأبار في تلك المناسبات مجالا لدغدغة شعور العظمة لدى الأمير أبي زكريا الحفصي ، ولتحريره على القيام بفرصة الجهاد بالأندلس . وكثيرا ما كان الشاعر يكرر ذكر بيعة تلك المدن في كل مرة يمدح فيها أبا زكريا . وقد يشير في القصيدة الواحدة إلى بيعة عدة مدن من العدوتين . قال في بيعة شريس وجزيرة طريف ومكناسة وقصر ابن عبد الكريم سنة 1242/640 [الطويل] (77) :

- 27- وَيَا شَرِيرَ الْجَزِيرَةِ يَا لَهَا وَمَكْنَسَةِ الْقَصْرِ عَزَّ فَلَاً وَهَضَا
28- وَلَا قَتْ عَلَى حُكْمِ السَّعَادَةِ بَرْدَهَا وَمَا بَرِحَتْ أَثْنَاءَ شَفَوْتِهَا رَهْضَا (78)

(75) د/ص 12 - 211 ، ص 214 .

(76) د/ص 300 .

(77) د/ص 340 .

(78) الرهص : شدة العصر .

وفي نفس هذه السنة جاءت بيعه سبتة والمرية . وكانت هذه المدينة الأندلسية قد آل أمرها إلى ابن الأحمر إذ استولى عليها سنة 1237/635 من يد صاحبها ابن الرمي . قال ابن الأبار [الطويل] (79) :

- 10- فَبِالْأَمْسِ أَلْقَتْ بِالْمَقَادَةِ سَبْتَةَ فَأَوْرَنْهَآ عِذًّا مِنَ الْأَمْنِ سَيْغَا
11- وَحَطَّتْ بِكَ الْيَوْمَ الْمَرْيَةُ رَحْلَهَا فَأَقْطَعَهَا رَغْدًا مِنَ الْعَيْشِ أَهْيَا

وأعاد الشاعر الإشارة إلى هذه البيعة المزدوجة في سنة 1248/646 بمناسبة عيد الفطر مادحا أبا زكريا [الوافر] (80) :

- 30- لِشَرْقٍ وَالْعَرْبِ اسْتَبَاقَ نَحْوَهُ كُلُّ قُنَيْلٍ دُعَائِهِ لِيَاهِ
31- وَبِدَارِ سَبْتَةَ وَالْمَرْيَةِ مُخْبِرٌ أَنْ سَوْفَ تُخَوِي الْخَافِقِينَ يَدَاهِ
38- وَبِعِيدِ فِطْرِ الْفُتُوحِ مُعَقَّبٌ كَالْيَوْمِ أَغْقَبَ صَبْحَهُ بِضَحَاهِ

ولكثرة المدن التي بايعت أبا زكريا في سنة 1242/640 سماه ابن الأبار عام الجماعة [السيط] (81) :

- 37- سُلْطَانُهُ خَرَقَ الْعَادَاتِ فَاتْتَلَفَتْ عَلَى الْمَرَاشِيدِ أَغْيَارَ وَأَضْدَادُ
38- لَا مَرِيَّةَ أَنْ إِهْطَاعَ الْمَرْيَةِ فِي أَغْقَابِ سَبْتَةَ لِلْإِجْمَاعِ مِيعَادُ
39- لَيْسَ أَهَابَتْ بِهِ مَرَاكُشٌ وَدَعَتْ لَمَّا عَدَتْ قَصْدَهَا بِصُرٍّ وَتَغْدَادُ
40- عَامَ الْجَمَاعَةِ مَا اغْتَاصَتْ وَلَا تَغِلَتْ فِيمَا يُقَرَّرُ حِسْبَانٌ وَتَغْدَادُ

وفي سنة 1243/641 (82) جاءت بيعه إشبيلية بعد خلعها لطاعة الموحدين وكانت عاصمتهم بالأندلس . قال ابن الأبار [الطويل] (83) :

- 1- لَا تُدْلَسَ الْبُشْرَى وَحَضَرَتْهَا (جَمَص) فَقَدْ كَسَيْتِ لِلْأَمْنِ فَضْفَاضَةَ الْقَمَصِ
2- وَقَدْ نُصِرَتْ عَوْدًا كَبْدِيَّ عَلَى الْعَدَى فَذَاقُوا الْمَنَايَا الْحُمُرَ بِالْحَسِّ وَالْحَصِّ

(79) د/ص 8 - 367 .

(80) د/ص 408 - 410 .

(81) د/ص 141 .

(82) د/ص 343 .

(83) هذه البيعة الأولى ثم رجعت إلى الدعوة الموحدية . وفي سنة 1245/643 عادت إلى بيعه الحفصيين .

- 4- أَلَمْ يَخْلَعُوا زُهْدًا وَحِرْصًا عَلَى الْهُدَى وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يُغَضِّدَ الزُّهْدُ بِالْحِرْصِ
5- عَلَيَّ بْنَ إِدْرِيسَ بْنِ يَعْقُوبَ وَاتَّمُوا (84) لِيَحْيَى بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي حَفْصٍ (85)

وَتَدْعَمُ هَذَا الْإِتِّفَافَ حَوْلَ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ مِنْ عَاصِمَةِ الْأَنْدَلُسِ فَطَرَبَ
لَهَا ابْنُ الْأَبَّارِ وَأَخَذَ فِي تَعْدَادِ جُمْلَةٍ مِنَ الْمَدَنِ الَّتِي وَصَلَتْ بِبَيْعَتِهَا إِلَى حَاضِرَةِ الْحَفْصِيِّينَ
[الطويل] (86) :

- 7- لَقَدْ رَاقَبْتُ عَامَ الْجَمَاعَةِ بَرْهَةً فَلَمْ يَغْدُهَا إِقْرَارُ عَيْنِ الْمُرَاقِبِ
11- أَلَا هَذِهِ حِمُصٌ تُنَاسِبُ طَاعَةَ سَجَلَمَاسَةٍ فِي رَفْضِهَا لِلْمُنَاصِبِ (87)
12- وَمَا خَالَفَتْ غَرْنَاطَةَ رَأْيِي رِيَّةً (88) لِتَشْمُلَ أَنْوَارَ الْهُدَى كُلَّ جَانِبِ
13- وَجَيَّانُ لَمْ تَبْرَحْ كَثِيلِبَ وَطَنْجَةَ مُبَارِيَةً هُوجَ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ
14- لِتَسْعَدَ بِالرَّضْوَانِ بَيْعَاتُهَا الَّتِي كَفَى شَاهِدٌ مِنْهُ تَأْمُلُ غَائِبِ

وَتَجَدَّدَتْ بَيْعَةُ إِشْبِيلِيَّةٍ لِلْحَفْصِيِّينَ سَنَةَ 1245/643 ، فَقَالَ ابْنُ الْأَبَّارِ مَهْتًا وَمُبَشِّرًا
هَذِهِ الْمَدِينَةَ بِالْأَمْنِ وَالسَّعَادَةِ تَحْتَ لُؤَاءِ مَخْدُومِهِ الْحَفْصِيِّ [الكامل] (89) :

- 25- لِلَّهِ حِمُصٌ وَقُوزُهَا بِسَعَادَةٍ هَدَتْ الْجَزِيرَةَ (90) نَحْوَهَا وَشَرِيئًا
27- أُمْتُ إِمَامِ الْعَذْلِ خَالِعَةٌ بِهِ مَنْ أَعْمَلَ التَّأْرِيثَ وَالتَّحْرِيشَا
28- وَإِلَيْهِ خَفْتُ وَالرَّجَاحَةُ فِي الْهَوَى أَنْ يَجْعَلَ الْآوِي لَهُ وَيَطْطِيشَا
30- وَبِحَيْلِهِ اغْتَصَمْتُ عَلَى حُبِّ لَهُ مُنْحَاشَةً لَا تَبْتَغِي تَهْـوِيشَا

وِيرَى الشَّاعِرُ أَنَّ مَرَآكَشَ تُوَيْدِ إِشْبِيلِيَّةٍ فِي بَيْعَتِهَا لِأَبِي يَحْيَى . فَهَلْ أَنَّ الشَّاعِرَ يِبَالِغُ

(84) السَّعِيدُ الْمُوَحَّدِيُّ .

(85) أَبُو زَكَرِيَّا الْحَفْصِيُّ .

(86) د/ص 1 — 80 .

(87) الْمَقْصُودُ هُوَ السَّعِيدُ الْمُوَحَّدِيُّ .

(88) فِي الْمَغْرِبِ : 423/1 : مَالِقَةٌ .

(89) د/ص 5 — 404 .

(90) الْمَقْصُودُ جَزِيرَةُ طَرِيفَ .

لأنّ مراكش لم تعترف مطلقا بالحفصيين أو أنّه أراد أن يشير إلى بعض الاتجاهات بها مؤيدة للحفصيين ؟ قال [الطويل] (91) :

20- وَلَيْسَتْ لَهُ مَرَائِشُ بِقَرَارَةٍ وَأَنْتَى وَمَا زَالَتْ مُظَاهِرَةٌ جَنْصًا

26- لِجَنْصٍ مِنَ الْبُشْرَى مُجِيلًا قَدَاخَهَا يَهَيْئُهَا تَسْعَى لِمَحْصِرِ الْهُدَى مَحْصًا

العدوة الإفريقية في ديوان ابن الأتبار

1 - ابن الأتبار بإفريقية :

لقد قرّر ابن الأتبار بعد أن سقط وطنه في 17 صفر 636/29 سبتمبر 1238 الانتقال إلى العدوة الإفريقية . وقد شجّعه على ذلك ما وجده لدى أبي زكريّا الحفصي من حفاوة وتقدير عندما جاء موفدا من قبل مخدومه ابن مردنيش أمير بلنسية قبل سقوطها . ويبدو أنّ ابن الأتبار اختار طريق البحر رأسا من بلنسية إلى بجاية . وهذا نفهمه من مطلع قصيدتين قالهما في مدح الولد الأكبر لأبي زكريّا وهو أبو يحيى أمير بجاية . قال في الأولى مادحا ومُوجِّهاً بالطريق الذي سلكه للوصول إلى العدوة الإفريقية [الكامل] (92) :

1- نُورُ الْهِدَايَةِ مَا أَضَاءَ وَلَا حَا فِقِفِ السَّفِينِ وَبَشِّرِ الْمَلَأَحَا
2- وَسَنَى الْإِمَارَةَ مَا تَطَّلَعَ فِي الدُّجَى مِنْ قَبْلِ إِسْفَارِ الصَّبَاحِ صَبَاحَا
3- فَأَغْقَلَ بِأُبْحُرِهَا جَوَارِيكَ الَّتِي جَاوَزَتْ إِلَى الْفَوْزِ الرِّيَاحِ رِيَا حَا
9- وَاصْدُفْ عَنِ الْبَحْرِ الَّذِي الْفَيْتُهُ ثَمَدًا، لِيُخْرِ نَوَالِهَا، ضَحَضًا حَا

وفي الثانية اتّضح لنا فعلا أنه سلك طريق البحر عندما وصف أخطاره حقيقة لا مجازا [الزّمل] (93) :

1- عَبَرَ الْبَحْرَ يَوْمُ الْأُبْحُرَا آمَنَّا فِي وَرْدِهِ أَنْ يَصُدُّرَا
2- وَامْتَطَى اللَّجَّةَ خَضْرَاءَ بِمَا أَلْفَ الْعَيْشِ لَدَيْهِمْ أَنْخَضُرَا

(91) د/ص 340 .

(92) د/ص 113

(93) د/ص 185

3- خَاضَ صَدْرَ الْهَوْلِ جَهْمًا عَابِسًا يَنْتَجِيهِمْ ضَاجِكَا مُسْتَبْشِرًا
4- وَسَمَا لِلْعَايَةِ الْقُصْوَى عَلَى خَطَرٍ أُخْرَزَ عَنْهُ الْأَخْطَرَا

وإذا ثبت فعلا أن ابن الأبار قال مدحيته الثانية في الأمير أبي يحيى في أواخر سنة 1238/637 أو بداية 1238/637 . فإن هناك أمرا يثير انتباهنا في هذه القصيدة ، ذلك أن ابن الأبار يخاطب الممدوح بولاية العهد قائلا [الرمل] (94) :

69- يَا وَلِيَّ الْعَهْدِ فِيمَا طَالَمَا نَافَسَ الدِّيَارُ فِيهَا الْمُنْبَرَا
70- هَاكَ مَا خَبَرْتُهُ مِنْ مَدَحٍ جِئْتُ عَنْ تَقْصِيرِهَا مُعْتَذِرَا
71- وَهِيَ الْإِمْرَةُ أَغْبَا وَصَفُهَا نُظِمَ الْحَمْدُ لَهَا أَوْ نُثِرَا

والإعلان رسميًا عن تعيين أبي يحيى لولاية العهد لم يتم إلا في سنة 1240/638 كما ذكر المؤرخون . فما هي الراوية الصحيحة يا ترى ؟ هل أن الناس اعتادوا — وابن الأبار منهم — أن يروا الحاكم يسند ولاية العهد لابنه الأكبر ، فيخاطبونه بذلك ولو لم يقع الإعلان عنه بصفة رسمية ؟ أو أن ذلك سياسة من أبي زكريا في حذره وهو يخطو رويدا رويدا نحو الاستقلال نهائيا بإفريقية عن الدولة الأم ؟

2 — نكبة ابن الأبار الأولى :

لم يقم ابن الأبار إلا بضعة أشهر ببجاية ، انتقل إثرها إلى تونس ، وأحسن أبو زكريا استقباله وقدر مواهبه وعهد إليه بالكتابة في ديوانه . ثم أسند إليه كتابة الإنشاء والعلامة في سنة 1240/638 بعد وفاة ابن الجلاء البجائي . وكان ابن الأبار يكتب العلامة السلطانية بالخط المغربي . وكان أبو زكريا يؤثر أن تكتب بالخط المشرقي . لهذا السبب عهد بكتابتها إلى أحمد بن إبراهيم الغساني ، وطلب من ابن الأبار أن يقتصر على إنشاء الرسائل وكتابتها وأن يدع مكان العلامة فيها للخطاط الجديد ، فغضب ابن الأبار واعتبر أن في ذلك مسًا بكرامته واستمر في كتابة العلامة بخطه المغربي فعُوتب في ذلك وروجع فاستشاط غضبا ورمى بالقلم من يده وأنشد :

أَطْلُبُ الْعِزَّ فِي لَطَى وَذِرِ الدُّلَّ لَ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ

ووصل الخبر إلى السلطان فصرفه عن العمل وأمره بلزوم بيته . وفي هذه المدة التي قضاهما ابن الأبار تحت الإقامة الجبرية ألف كتاب (إعتاب الكتاب) .

هذا ما جاء مختصرا في كتب التاريخ من أسباب في نكبة الشاعر الأولى . ولقد لمّح ابن الأبار في مقدمة كتابه الإعتاب إلى ذلك، فاعترف بأنه (جاء شيئا إذا) (95) وفي خاتمته يشير — والمقصود هو ذاته — إلى خطورة اللسان على الإنسان (96) فيما يتعرض له من نكبات .

وفي نفس هذه الخاتمة يذكر ابن الأبار أن السلطان عفا عنه (97) ، ولكن ما راعه إلا وأبو زكريا يخيره في الرحيل بين التشريق والتغريب (98) . وسقط في يد الشاعر وبدأ يستعد للسفر ويبيع أدبائه بأبخس الأثمان (99) ، فكانت حالته مع أسرته في هذه الفترة شبيهة بما قاساه لما سقط وطنه بلنسية في يد النصارى واضطر للرحيل عنه (100) . ومع ذلك لم يأس الشاعر من الحصول على عفو السلطان فكتب إليه يستعطفه ويُقر بذنبه نادما تائباً [الكامل] (101) :

- 4- نَدِمِي ، عَلَى مَا نَدِمْتِي ، دَائِمٌ وَعَلَامَةُ الْأَوَابِ أَنْ يَتَذَمَّرَا
- 5- يَأْطُولُ بُوسِي مُنْسَلًا بِجَرِيرَةٍ
- 7- فَأَحَقُّ مَنْ تُولِي الْإِقَالَةَ عَائِرٌ
- 8- أَقْصَاهُ عَنْكَ تَزْلُفٌ بِخَطِيئَةٍ
- 9- وَلَقَدْ تَحَفَّظَ فِي الْمَقَالَةِ جُهْدُهُ
- 10- قَدْ عَلَّمْتُهُ تَجَنُّبَ الْجَهْلِ الْعُلَى
- وَعَلَامَةُ الْأَوَابِ أَنْ يَتَذَمَّرَا
- إِنْ لَمْ تُجِرْنِي بِالتَّجَاوُزِ مُنْعَمًا
- لَمْ يَسْتَجِبْ عَلَى الْهُدَى قَطُّ الْعَمَى
- خَالَ الصَّوَابَ خِلَالَهَا وَتَوَهَّمَا
- لَكِنَّهُ لِمَيِّ الْحَدِيثِ وَتُؤْنِمَا
- يَكْفِيهِ أَنْ قَوْمَتُهُ فَتَقَرَّمَا

(95) الإعتاب ص 46 .

(96) الإعتاب ص 354 .

(97) الإعتاب ص 354 .

(98) الإعتاب ص 355 .

(99) الإعتاب ص 355 .

(100) الإعتاب ص 356 .

(101) د/ص 5 — 274 .

وللتعجيل بعفو السلطان قبل تنفيذ قرار التفي ، استشفع بالأمير أبي عبد الله محمد ، وتطارح عليه حتى يتدخل لصالحه لدى والده ، وأنشده [مجزوء البسيط] (102) :

- 1 - مَوْلَايَ ذَامَتْ لَكَ السُّعُودُ أَخْطَأْتُ أَخْطَأْتُ لَا أُغْوِدُ
- 2 - مَالِي بَرَاخٌ وَلَا ائْتِرَاخٌ مَوْتِي فِي أَرْضِكُمْ خُلُودُ
- 3 - كُنْ لِي شَفِيعًا إِلَى إِمَامٍ لَيْسَ عَلَيَّ فَضْلُهُ مَزِيدُ
- 4 - عَادَتْهُ الْعَفْوُ وَالْمَوَالِي تَغْفِرُ إِذَا أَخْطَأَ الْعَبِيدُ

وفي شهر رمضان كما جاء في خاتمة كتاب الإعتاب دون ذكر للسنة (103) بدأ في الأفق ما أعاد الاطمئنان التسيبي لنفسه ، فبشر عائلته وأسرع بمخاطبة المولى أبي زكريا حتى يتراجع في قراره الأول . قال [السريع] (104) :

- 10 - أَذْنَبَ لَكِنْ ثَابَ مِنْ قَوْرِهِ وَفِي قَبُولِ الثُّوبِ رَفْعُ الْخُنَاخِ
- 11 - حَسْبِي شَفِيعًا لَكَ فِي هَفْوَتِي حُبٌّ وَنُصْحٌ وَتَسْلَاءُ صَرَاحِ
- 12 - بَرَّحَ بِي الثَّقُوفُ إِلَى حَضْرَةِ (105) لَيْسَ لِمَنْ وَقَفَ عَنْهَا بَرَاخِ
- 13 - وَهَمْتُ فِيهَا بِاقْتِرَابِ فَلَمْ تُثْمِرْ لِي الْأَقْدَارُ غَيْرَ ائْتِرَاخِ (106)

وفعلا عفا السلطان عن الشاعر قبل حلول العيد ولعله عيد الفطر فعبّر عن فرحته الكبرى بقوله [مخلع البسيط] (107) :

- 1 - قَابِلْتُ نَعْمَاكَ بِالسُّجُودِ لِلَّهِ مِنْ عَطْفَةٍ وَجُودِ
- 3 - قَدْ وَصَلَ الْأَمْنُ وَالْأَمَانِي بَعْدَ الْمُجَافَاةِ وَالصُّدُودِ

(102) الإعتاب ص 257

(103) تشير المصادر إلى أن ابن الأبار لم يمكث طويلا في كتابة العلامة والإنشاء وغضب عليه أبو زكرياء ، ثم هو من جهة أخرى يذكر الأمير أبا يحيى ويضيف (ولي العهد)، وقد تولى هذا الأمير ولاية العهد في رجب 638/1240 . فمن المرجح أن يكون ابن الأبار نكب في المرة الأولى في أواخر الثلاثينات من القرن 7 هـ/13 م .

(104) الإعتاب ص 9 - 258 .

(105) حضرة بمعنى مجلس .

(106) أخطأ المحقق عندما ذكر أن الشاعر قال هذه القصيدة وهو في بجاية . وكما يفهم من خاتمة الكتاب في هذه المحنة فإن السلطان عفا عنه قبل أن يرحل . والقصيدة موجودة في خاتمة الإعتاب .

(107) د/ص 169 - 170 .

- 10- صَفَحْتَ عَمْدًا عَنِ الْخَطَايَا وَتِلْكَ مِنْ عَادَةِ الْعَمِيدِ
14- مَا غُرَّةَ الْعِيدِ أَجْتَلِيهَا يَوْمَ رِضَاكَ الْأَعْرُ عِيْدِي

ولم ينس الشاعر أن يشيد بشفاعة الأمير أبي عبد الله لدى والده فقال يخاطبه
[الوافر] (108) :

- 1- أَيْأُ بُشْرَايَ قَدْ وَضَحَ الْقُبُولُ وَصَحَّ مِنَ الرُّضَى أَمَلٌ وَسُؤْلُ
2- وَشَفَّعَ تَجَلُّهُ الْأَرْكَى إِمَامٌ لِمَنْ صُرِمَتْ وَسَائِلُهُ وَصُؤْلُ
3- فَمَا لِسِيَوَاهُمَا فِي الصَّفْحِ عَنِّي يَدٌ عَلَيَا وَلَا مَنْ جَزِيلُ
4- أَقَالِنِي الْخَلِيفَةَ مِنْ عَثَارِي فَمَاذَا فِي إِقَالَتِهِ أَقُولُ
8- أَذُوبُ إِذَا أَحْجَبَ عَنْهُ شَوْقَا إِلَيْهِ فَكَيْفَ لَوْ أَرَفَ الرَّجِيلُ

لقد نجح الأمير في مسعاه وانقذ الشاعر من حياة الضياع والتشرد ، فقال ابن الأبار
[الطويل] (109) :

- 1- أَجَارَ مِنَ الْخُطْبِ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ فَقُمْتُ بِمَا أُولَاهُ أَتْنِي وَأَحْمَدُ
7- وَمَنْ يَكْ فَرَعًا لِلْإِمَامَةِ وَالْهَدَى فَإِنَّ جَنَاهُ الْغَضُّ مَجْدٌ وَسُؤْدُ
8- رَأْنِي مَرْدُودَ الشَّرَائِعِ كُلِّهَا تَقَرَّبْتُ بِالْإِنْخِلَاصِ أَقْصَى وَأُبْعَدُ
9- نَصِيبِي مِنَ الْآدَابِ جِرْفَتَهَا الَّتِي شَقِيتُ بِهَا جَارًا لِمَنْ بَاتَ يُسْعَدُ
10- وَلِلْحَظِّ لَحْظُ كُلِّ دُونِي خَاسِمًا كَأَنِّي وَإِيَّاهُ شُعَاعٌ وَأَزْمَدُ
11- فَجَمَعَ مِنْ شَمْلِي ، وَشَمْلِي مُفَرَّقُ وَرَفَّةٍ مِنْ شِرْبِي وَشَرْبِي مُصَرَّدُ
12- تَشَفَّعْتُ فِيهَا لِلْإِمَامِ بِنَجْلِهِ وَنَعَمَ شَفِيعُ الْمُذْنِبِينَ مُحَمَّدُ

3 - ثورة بني غانية :

تعتبر ثورة بني غانية القادمين من الجزائر الشرقية (جزر البليار) السبب المباشر لقيام الدولة الحفصية . فلولاً هذه الثورة لما عهد الناصر الموحد لأبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص بولاية إفريقية ، باعتباره حاكماً شبيّه مستقلّ ليتمكن من مواصلة تتبع ابن غانية . وقد اغتسم أبناؤه ، وخاصةً أبا زكريا فرصة ضعف الدولة الموحدية واستمرار خطر بني غانية للاستقلال نهائياً بإفريقية .

(108) الإعتاب ص 1 - 260 .

(109) د/ص 171 - 172 .

وقد مَرّت ثورة بني غانية بمرحلتين :

1 — المرحلة الأولى وتزعمها علي بن إسحاق الآتي من ميورقة . وبدأها باحتلال بجاية يوم 6 شعبان 13/580 نوفمبر 1184 وتستمرّ ثورته إلى موته جريحا إثر معركة الحمة في سنة 1188/584 .

2 — المرحلة الثانية وتزعمها يحيى بن غانية بعد موت أخيه علي وسيبقى هذا الثائر حوالي نصف قرن يناصب العداء كُلاً من الموحدّين والحفصيّين . وتمكن في 7 ربيع الثاني 14/600 ديسمبر 1203 من الاستيلاء على مدينة تونس . ولم تنته هذه الثورة إلّا بموت يحيى بن غانية في 1237/633 قرب مليانة . وكان لأبي زكريا الحفصي مؤسس الدولة الحفصيّة الفضل الأكبر في القضاء على هذه الثورة .

لقد بقي صدى هذه الثورة يرّ في أصداء إفريقيّة والمغرب الأوسط طيلة فترة حكم أبي زكريا . ولهذا قلّما تخلو القصائد المدحيّة التي دَبّجها ابن الأَبّار في هذا الأمير وأبيه زكريا ومحمّد⁽¹¹⁰⁾ من الإشارة إلى فشل بني غانية وخاصة فشل بطل المرحلة الثانية من هذه الثورة وهو يحيى بن غانية .

لقد ذهبت — في نظر ابن الأَبّار — جهود هذا الثائر ومساعيه أدراج الرياح كما ضاعت جهود من سبقه من عائلته وخاصة علي بن إسحاق أخاه . قال الشاعر [الوافر]⁽¹¹¹⁾ :

42— فَمَا أَغْنَى ابْنُ غَانِيَةٍ فَيْتِلًا وَمَا أَجْدَى ذَوْوُهُ بُنُو عَلِيٍّ
43— وَأَحْكَامُ اللَّيَالِي جَارِيَاتٌ عَلَى الْمُنْحُوبِ⁽¹¹²⁾ قَلْبًا وَالْجَرِيٍّ
44— فَإِنْ كَانَتْ لَهُ الْهَيْجَاءُ شَرُّبًا فَقَدْ ذَادَتْهُ أَطْرَافُ الْعَصِيٍّ
45— وَإِنْ تَكُنِ الشَّقَاوَةُ أَنْسَاءَهُ فَلَمْ يَكُ لِلْسَعَادَةِ بِالنَّسِيٍّ

(110) ذكر الشاعر بني غانية مرّات متعدّدة في ديوانه وخاصة في خمس مناسبات : 4 منها بمناسبة مدح ولّي العهد أبي يحيى زكريا أي أنها قيلت ما بين 1240/638 و 1248/646 وقصيدة مدح بها ولّي العهد محمّدا أي سنة 1248/646 . وتذكّر الشاعر دائما بني غانية بمناسبة مدح ولّي العهد الأوّل أو الثاني يمكن تفسيره من الناحية النفسية : إن ولاية العهد هي رمز لاستمراريّة الدولة وابن غانية رمز لانقطاعها فكّلما ذكر الرّمز الأوّل خطر بباله الرّمز الثاني .

(111) د/ص 8 — 427

(112) الجبان .

وثورة ابن غانية هي ضرب من الفساد في الأرض ، وفي القضاء عليها من طرف أبي زكرياء راحة للبلاد وللعباد [الكامل] (113) :

24- أَيْنَ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيْنَ غَنَاؤُهُ لَا ذَاكَ مَخْسُوسُ الْوُجُودِ وَلَا ذَا

25- آذَى وَآذَ فَسَادُهُ وَعَنَادُهُ فَكَفَى الْوَرَى مَا آذَ مِنْهُ وَآذَى

26- وَيَحَاهُ وَهُوَ يُبْزُقِرَانِ الْوَعَى فَمَحَاهُ سَبَّاقُ لَهْ بِذَاذَا

ولكن الممدوح الحفصي استطاع أن يقضي عليه ويسحق أتباعه . قال ابن الأثير بعد أن عدد القبائل الثائرة التي استطاع أبا زكريا أن يخضعها لسلطانته [الوافر] (114):

70- وَفِي سَحْقِ ابْنِ إِسْحَاقَ اغْتِبَارٌ وَمَا أَفْضَى إِلَيْهِ مِنَ الثُّبُورِ

71- مَحَاهُ (115) وَكَانَ ذَا دَهْيٍ طَوِيلٍ بِأَثَرٍ مِنْ صَوَارِمِهِ قَصِيرُ

72- وَإِنْ هُوَ لَمْ يُبَاشِرْهُ ضِرَابًا فَخِيفَتْهُ طَوْنُهُ إِلَى النُّشُورِ

73- وَكَمْ غَشِيَّ الْوَعَى وَلَهُ زَيْبٌ قُبُلٌ بِالزَّيْفِ مِنَ الزَّيْبِ

74- وَطَارَ إِلَى غَمَارِ الْمَوْتِ صَفْرًا فَحُطَّ إِلَى الْبَغَاثِ عَنِ الصُّفُورِ

75- سَيُوفُ يَنْبِي أَبِي حَفْصٍ نَفْتُهُ وَقَادَتْهُ إِلَى سُوءِ الْمَصِيرِ (116)

76- وَلَوْلَاهَا لَسَعَرَهَا حُرُوبًا كَمَا اضْطَرَمَّتْ عَلَيْهِ لَظَى السَّعِيرِ

لقد أصبح هذا الناصر وقومه أثرا بعد عين [البسيط] (117) :

33- أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ اسْتَوْلُوا إِلَى أَمَدٍ فَاسْتَأَصَلَتْهُمْ عَوَالِيهِ بِمَا صَالُوا

34- أَلَتْ قَوَاءَ مَغَانِي آلِ غَانِيَةٍ بِهِ وَغَالَتْهُمْ لِلدَّهْرِ أَغْوَالُ

وعبرة لمن يعتبر [الكامل] (118) :

3- قَسَمَ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ تَمَرَّدُوا وَتَسْتَمُوا صَرَخَ الشَّقَاقِ مُرَدًّا

4- أَيْنَ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيْنَ غَنَاؤُهُ لَا مُلْجِدٌ إِلَّا وَأَصْبَحَ مُلْجِدًا

(113) د/ص 183

(114) د/ص 197

(115) الضمير يعود على الممدوح وهو أبو زكرياء .

(116) الأبيات لا تخلو من تلميح إلى قوة هذا الناصر وبأسه وما عاناه الحفصيون في مقاومته وإخضاعه .

(117) د/ص 245

(118) د/ص 167

4 — ثورة أبي عبد الرحمان يعقوب الهرغي (119) :

إن نكبة الهرغي حاكم طرابلس مرتبطة بشديد الارتباط بنكبة صاحب الأشغال بتونس ، وهو محمد بن محمد الجوهري . لقد كان هذا الأخير في عداوة شديدة مع رئيس الدولة أبي علي بن النعمان والوزير أبي عبد الله ابن الحسين والوزير أبي يحيى بن أبي الحسن بن جامع . فأوغروا صدر الأمير أبي زكريا عليه . فأمر بالقبض عليه وتعذيبه ليستخرج منه الأموال ، فتجلد ولم يظهر من الأموال شيئا . ثم وجد بعد ذلك في سجنه ميتا قد خنق نفسه بعمامته في شوال سنة 1241/639 .

وكانت بين الجوهري ويعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي حاكم طرابلس صداقة متينة فاستوحش مما فعله أبو زكريا بصديقه . فلما استقدمه السلطان إلى تونس تلقا وفكر في الاستبداد بالأمر ، لكن أهل البلد تفتنوا فقبضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعه وأعلموا أبا زكريا ، فأمر بقتلهم وبعث رؤوسهم إلى تونس فنصبت بسورها ونصبت الأشلاء بأسوار طرابلس . فقال ابن الأبار يصف رؤوس القتلى متشفيا [الكامل] (120) :

- 1- وَعَصَابَةٍ قَطَفَتْ رُؤُوسَهُمُ الطُّبَى قَطَفَ النَّانِ أَزَاهِرَ البُسْتَانِ
- 2- غَدَرُوا وَمَا شَعُرُوا بِأَنْ وَرَاءَهُمْ لِلْحَقِّ أَنْصَارًا عَلَى الْبُهْتَانِ
- 3- فَأَنْظُرْ إِلَى هَامَاتِهِمْ مُسَوَّدَةً كَاللَّيْلِ غَيْرَ بَوَارِقِ الْأَسْنَانِ
- 4- لَأَحْتِ مِنَ السُّورِ الْمُئَيِّفِ بِصَفْحَةٍ بَيْضَاءَ كَالشَّامَاتِ وَالْخَيْلَانِ

وبقي صدى هذه الثورة عالقا بذهن الشاعر ، فلما وقف يمدح أبا زكريا وولي عهده أبا يحيى بمناسبة فتح تلمسان سنة 1242/640 لَمَحَ إلى ما آل إليه مصير من عصى وغوى بطرابلس . قال [الطويل] (121) :

- 58- كَفِيلٌ بِقَهْرِ الْعَرَبِ وَالْعُجْمِ بِأَسْئُهُ وَلَا عَجَبٌ أَنْ يَقْنِصَ الْأَجْدُلُ (122) الصَّغْوُ (123)
- 68- فَتِلْكَ تِلْمَسَانٌ وَمَلْيَانَةٌ إِلَى طَرَابُلُسٍ رُوعًا مُجَدَّدَةً رَغْوَى (124)
- 69- بِلَادَ سَقَتْ فِيهَا الطُّغَاةَ سُعُودُهُ كُؤُوسَ مَنَائِيهَا جَزَاءَ عَلَى الطُّغْوَى

(119) هذا التأثير يعتبر من كبار شيوخ الموحدين .

(120) د/ص 293 .

(121) د/ص 422 و ص 423 .

(122) الأجدل : الصقر .

(123) الصغوا : صغار العصافير .

(124) الرعوى : التوبة .

5 - فتح تلمسان :

خصّ الشاعر فتح تلمسان بقصيدة كاملة (ق. رقم 2 ص 41) وأشار إلى هذا الحدث الكبير بالنسبة إلى الدولة الحفصية في مدحه لأبي زكرياء⁽¹²⁵⁾ في القصائد التالية ق 48 ص 383 وق 176 ص 379 وق 201 ص 417 .

وقد علّل جلّ المؤرخين وعلى رأسهم ابن خلدون فتح أبي زكريا تلمسان بخوف الأمير الحفصي من تحالف ثلاثي ضده بين السعيد الخليفة الموحد (1242/640 - 1248/646) وأبي يحيى يغمراسن صاحب تلمسان والأمير المريني أبي يحيى بن عبد الحق . وقد تمّ فعلاً التحالف بين الأول والثاني فأسرع أبو زكريا بالهجوم على تلمسان لإفساد هذا التحالف ونجح في ذلك نجاحاً كاملاً .

أما ابن الأبار فيرى في الهجوم على تلمسان ضرب من نصرة الدين والغضب لله . وهذا هو السبب الذي تروّجه الخاصة لإقناع العامة ، ولتبرّر به هذه الحروب الداخلية . قال الشاعر [البيط]⁽¹²⁶⁾ :

- 7- غَضِبْتَ لِلَّهِ تَسْتَرْعِي فَرَائِضَهُ فِجَعْتَ تَرْمِي بِسَهْمٍ لَيْسَ يُخْطِئُهُ⁽¹²⁷⁾
8- وَقُمْتَ لِلدِّينِ إِفْصَاحًا بِنُصْرَتِهِ فَاسْتَحْفَرْتَ⁽¹²⁸⁾ عِنْدَهَا الدُّنْيَا تَهْتِئُهُ
9- قَدْ كَانَ مُنْتَهَكًا جِسْمُ الْهَدَى مَرْضًا وَأَنْتَ رُوحٌ لَهُ مَا زِلْتَ تُبْرِئُهُ

ولا تشير المصادر التاريخية إلى أنّ أبا زكريا خرج بجيشين إلى تلمسان برّي وبحري ، بينما يشير ابن الأبار إلى ذلك بقوله⁽¹²⁹⁾ :

- 10- لِلَّهِ جَيْشُكَ وَالْأَسْطُولُ قَدْ ضَمِنَا لِلْمُقْتَدِي بِالْهَدَى سَيَرًا يُهْدِيهِ
12- هَذَا عَلَى أَغْبَرِ الْبَيْدَاءِ يَسْجُرُهُ⁽¹³⁰⁾ وَذَلِكَ فِي أَعْظَرِ الدَّامَاءِ يَمْلُؤُهُ

(125) د/ص 41 .

(126) د/ص 41

(127) الضمير يعود على العدو .

(128) استحفرّت : أسرع .

(129) د/ص 42 .

(130) يسجره : يملؤه .

لقد غادر أبو زكرياء تونس في شوال 639/أفريل — ماي 1242 ووصل إلى تلمسان في نهاية محرم 640/جويلية 1242 وحاصرها وأخذها عنوة في شهر ربيع الأول 1242/640 . وأثناء الحصار تمكّن يغمراسن بشجاعته الفائقة أن يقتحم الجيش المحاصر ويشق لنفسه ولفرسانه وعائلته طريقا ويفرّ إلى الجبل . فقال ابن الأبار [البسيط] (131) :

16— دَنَتْ غَمَرَاتُ الْمَوْتِ مِنْ يَغْمُرَاسِنِ فَأَجْفَلَ كَالْخَرْقَاءِ يَغْتَسِفُ الْخَرْقَا (132)
17— وَمِنْ نُجْبِهِ (133) يَوْمَ الْهَيَاجِ سَلِيقَةً تَسْلُقُهُ مِنْ يَمْنَنِ آسَاوِهِ سَلَقَا

ولئن لم تضبط المصادر التاريخية إلاّ السنة والشهر اللذين تمّ فيهما الفتح ، فقد ذكر ابن الأبار اليوم والساعة (134) :

15— أَتْنَهُمْ جُنُودُ اللَّهِ تَنْمُدُ صَنْدَهُمْ فَحَقَّ عَلَيْهِمْ صَبْحَةُ السَّبْتِ مَا حَقَّا
وقال (135) :

59— يُفَاجِرُ فِيهِ السَّبْتُ يَوْمُ عُرُوبَةٍ وَمَا كَانَ إِلَّا مِنْ نَتَائِجِهَا حَقَّا

ولم يبق أبو زكرياء في تلمسان إلاّ 17 ليلة (136) ، إذ رأى أنّ من الحكمة أن يعفو عن يغمراسن ويعيده إلى حكم تلمسان باسمه ليكون الدرع الواقى لمملكته من خطر الموحدّين والمرينيين معا . قال ابن الأبار (137) :

18— رَمَاهُ فَأَصْنَمَاهُ بِأَقْحَافِ رَأْسِهِ إِمَامٌ هُدَى لَقَى الضَّلَالَةَ مَا لَقَى
19— وَأَعْدَمَهُ الْمُلْكُ الَّذِي اعْتَادَ غَضَبَهُ فَرَاجَعَ تَحْتَ الذَّلَّةِ الْمُلْكُ وَالرَّقَا

(131) د/ص 381

(132) الخرق : الأرض الواسعة .

(133) ما اعتبره الشاعر خبثا اعتبرته المصادر التاريخية شجاعة وبأسا ونوّهت بهما .

(134) د/ص 381 .

(135) د/ص 384 .

(136) العبر : 607/6 .

(137) د/ص 381 .

وكان على يغمراسن — حسب الشاعر — أن يستند على الركن الأشم وهو أبو زكريا الحفصي لا على الحائط المتداعي وهو السعيد الموحدي ، فشتان ما بين الجوارح الكاسرة والطيور الصغيرة الضعيفة . وهنا ينكشف السبب المباشر والحقيقي لهذه الحملة ، لا مذكروه من أسباب دينية واهية . قال ابن الأبار [البسيط] (138) :

45—أوى(139) إِلَى أَضْعَفِ الْأَرْكَانِ مُسْتِنْدًا وَأَيْنَ مِنْ كَاسِرَاتِ الطَّيْرِ يُؤَيُّوهُ(140)

لقد كانت فكرة الاستيلاء على سلا ومراكش تخامر ذهن أبي زكريا سواء قبل فتح تلمسان أو بعدها . فالدولة الموحدية في سنة 1242/640 كانت في حالة احتضار . ومن هنا فإن تحريض الشاعر للممدوح على مهاجمتها ليس من بنات أفكاره وإنما هو أمر متوقع من دولة قوية ناهضة أمام دولة منهارة آفلة . قال ابن الأبار (141) :

35—جَاوَزَ تِلْمَسَانَ فَتَحَا لِأَحَقَّاسِلًا يَكْفُ مَنْ كَفَرَ النُّعْمَى وَيَكْفُوهُ

36—وَأَنهَذَا لِمَرَآكُشٍ تَسْعَدُ بِهَا نَفْلًا(142) مَا كَانَ مِثْلَكَ يَنْسَاهُ وَيَنْسُوهُ

وفتح تلمسان فعلا هو تهديد لسلا ومراكش ، وهو إنذار في نفس الوقت لفاس وسبتة ولنصاري الأندلس قال الشاعر (143) :

34—وَهَلْ سَكَنْتَ فَاسٌ وَسَبْتَةُ بَعْدَهُ أَمْ اضْطَكَّتَا كَالْخَافِقَيْنِ لَهُ خَفَقَا

35—لَقَدْ بَاتَ أَهْلُهَا بِبَلِيلَةٍ مَاحِضٍ وَقَدْ عَضَلَّتْ وَضْعًا وَمَا فَتَرَتْ طَلْقَا

36—وَهَلْ أَخَذَتْ رُومُ الْجَزِيرَةِ جِذْرَهَا مِنَ الْفَتَكَةِ النَّكْرَاءِ تُمَحِّقُهُمْ مَحَقَا

(138) د/ص 45 .

(139) يغمراسن

(140) أساء المحقق فهم هذا البيت .

(141) د/ص 44 .

(142) الاستيلاء على عاصمة الدولة الموحدية وهي مراكش سيكون غنما سهلا دون حرب نظرا

إلى ضعف هذه الدولة .

(143) د/ص 383 .

وبفتح تلمسان سيمتد ملك أبي زكرياء من تلمسان ومليانة غربا إلى طرابلس شرقا .
قال ابن الأبار (144) :

- 66- يُصَرِّفُ صَرَفَ الدُّهْرِ فِي النَّاسِ حُكْمَهُ فَإِنْ عَصِمَ الْأَهْدَى لَقَدْ قَصَمَ الْأَغْوَى
67- وَيُزَوِّى لَهُ شَرْقُ الْبِلَادِ وَغَرْبُهَا لِيُخْلَعَ مِنْهَا مُلْكُهُ كُلُّ مَا يُزَوِّى
68- فَبِلْكَ تِلْمَسَانَ وَمِلْيَانَةَ إِلَى طَرَابُلُسٍ رَوْعًا مُجَدَّدَةً رَغْوَى (145)

6 - بيعة مدن إفريقية لأبي زكريا

بدأ مسلسل الاعتراف بالسلطة الحفصية في بلاد المغرب والأندلس منذ أن برهن أبو زكريا على أنه رجل المواقف الصعبة . فقد استولى على بجاية وقسنطينة في سنة 1230/628 ثم قضى على ثورة ابن غانية في سنة 1234/631 وبدأ التفكير في غزو تلمسان . قال ابن الأبار [الطويل] (146) :

- 8- وَلَمَّا أَجَبْتَ النَّاصِرِيَّةَ نَاصِرًا وَجُنِبْتَ إِلَى الْبَطْحَاءِ يَبْدَاءَهَا رَكْضًا
9- دَعَاكَ تِلْمَسَانَ فَلَبَّيْتَ صَوْتَهَا مُجِيرًا وَتَابَ الْجَوْرُ يُوسِعُهَا غَضًا

وفعلا تم فتح تلمسان سنة 1242/640 فبوا هذا النصر أبا زكريا مكانة مرموقة في أعين أتباعه ومناوئية ، داخل إفريقية وخارجها ، وأصبح مؤسس هذه الدولة الجديدة قوة تترجى ورُعا يتقى . قال الشاعر [طويل] (147) :

- 9- دَعَاكَ تِلْمَسَانَ فَلَبَّيْتَ صَوْتَهَا مُجِيرًا وَتَابَ الْجَوْرُ يُوسِعُهَا غَضًا
15- أُبَحَّتْ جَمَاهَا قَادِرًا وَحَمِيَّتُهُ فَعَادَزَتْ حُبَّ الْعَدْرِ فِي صَدْرِهَا بُغْضًا
16- وَخَلَفَتْ جَيْشَ الرُّغْبِ فِي أَخْوَاتِهَا يُقْضَى عَلَيْهِنَّ الْمَضَاجِعُ مَنَقْضًا

وكان أبو زكريا قبل ذلك بسنة أي في سنة 1241/639 قد قضى على ثورة طرابلس وهي في المهد وقتل واليها عبد الرحمان الهرغي أحد كبار شيوخ الموحدين . وهكذا

(144) د/ص 423 .

(145) الرغوى : التوبة وحسن الرجوع :

يشير إلى فتح تلمسان سنة 1242/640 وإخماد ثورة الهرغي في طرابلس 1241/639 .

(146) د/ص 346

(147) د/ص 346

لم يمنعه بعد المسافة بين أطراف مملكته من أن يضرب شرقا وغربا . قال ابن الأثير [الطويل] (148) :

- 58- كَفِيلٌ بِقَهْرِ الْعَرَبِ وَالْعُجَمِ بِأَسْئِهِ وَلَا عَجَبٌ أَنْ يَقْبِضَ الْأَجْدُلُ الصَّغُورَا
68- فِتْلَكَ تِلْمَسَانْ وَمَلْيَانَةً إِلَى طَرَابُلسِ رُوعَا مُجَدَّدَةً رَغْوَى
69- بِلَادُ سَقَتْ فِيهَا الطُّغَاةُ سُعُودُهُ كُؤُوسَ الْمَنَائِيَا جَزَاءَ عَلَى الطُّغُوسَى

وبالقوة خضعت إفريقية بأكملها للسلطة الحفصية وعادت رياضاً آمنة بعد أن كانت غياضاً ترتع فيها الوحوش الكاسرة من ثائرين وعصاة . قال الشاعر [الطويل] (149) :

- 6- أَطَاعَتْكَ إِفْرِيقِيَّةٌ فَكَفَيْتَهَا عُصَاةً عَلَى إِثْلَافِهَا ائْتَلَفُوا هُضَا
7- وَكَانَتْ غِيَاضًا بِالْعَدَى فَأَعَدَّتْهَا رِيَاضًا يَرْفُ الثُّورُ ائْتَاءَهَا غَضًا

وفتح تلمسان واستتاب الأمن داخل إفريقية ، جعل مدن المغرب الأقصى تراجع سياستها مع الدولتين المتواجدين على الساحة : وهما الدولة الموحدية الضعيفة والدولة الحفصية القوية : فبالنسبة إلى المدن التي مازالت خاضعة لدولة بني عبد المؤمن ، فقد كثر فيها الفساد . ولكن غضّ أبو زكريّا الطرف عنها فما ذلك إلّا من باب الحنان والرفق بالجاني لعله يروعوي عن غيّه من تلقاء نفسه . قال ابن الأثير [البيسط] (150) :

- 48- سَلَا عَنْ (سَلَا) مُذْ ظَلَّهَا الْعَارِضُ الَّذِي أَطْلَ عَلَى مَرَاكُشٍ يَحْمِلُ الصَّعْقَا
49- وَأُسْرِفَ أَهْلُوهَا مَعَاصِييَ أَوْ بَقَتْ فَمَا زَادَ أَنْ أُغْضِيَ حَنَائِيَا وَأَنْ أُبْقَى
50- كَانَ مُشِيدَ السُّورِ شَاءَ انْهِدَادُهُ لِيُظْفَرَ بِالْأُشْقَى عَلَى يَدِهِ الْأُتْقَى
51- وَإِلَّا فَكَيْفَ انْهَالَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَمَا انْهَالَتِ الْكُتُبَانُ وَانْهَارَتْ الْأَنْقَا

وبالنسبة إلى المدن التي خرجت عن الطاعة الموحدية أو هي بصدد المحاولة ، فإن فتح تلمسان سيجعلها تعيش حالة مخاض من الخوف والحيرة والتردد . ولكن كلّ ذلك

(148) د/ص 423 — 422

(149) د/ص 345 — 346

(150) د/ص 383

سيسرع بها لأخذ قرار البيعة لأبي زكريا الحفصي ، لهذا تساءل الشاعر عن وقع الفتح في نفس متساكنيها ومن جاورهم من روم الجزيرة الأندلسية قائلا [الطويل] (151) :

- 34- وَهَلْ سَكَنْتَ فَاسَ وَسَبْتَهُ بَعْدَهُ أَمْ اسْتَطَكْنَا كَالْخَافَقَيْنِ لَهُ خَفَقَا
35- لَقَدْ بَاتَ أَهْلُهَا بِلَيْلَةٍ مَا خَضِرَ وَقَدْ عَضَلْتُ وَضَعًا وَمَا فُتِرَتْ طَلَقَا
36- وَهَلْ أَخَذْتَ رُومَ الْجَزِيرَةِ جَذَرَهَا مِنْ الْفَتَكَةِ التُّكْرَاءِ تَمَحُّقَهُمْ مَحَقَا

وقد بادرت سبتة مع حاكمها أبي علي بن خلاص سنة 1242/640 بإرسال بيعتها إلى أبي زكرياء . فكانت بيعتها بمثابة العلامة الخضراء لبقية المدن المغربية لتحذو حذوها وتنحو منحاه . قال ابن الأثير [الطويل] (152) :

- 8- هَنَيْئًا لِأَهْلِ الْعِدْوَتَيْنِ عِدَادُهُمْ بِإِخْلَاصِهِمْ فِي الْمُخْلِصِينَ الْأَطْيَابِ
9- أَطَاعُوا الْإِمَامَ الْمُرْتَضَى وَتَسَابَقُوا إِلَى سَنَنِ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ لِأَجِبِ
10- إِلَى مَذْهَبٍ سَبْتَهُ سَبْتُهُ قَاصِدٍ بِهِ عَدَلُوا عَنْ زَائِعَاتِ الْمَذَاهِبِ

وجاءت بيعة فاس معترفة بالخلافة الحفصية بعد أن راجعت نفسها وبدا لها طريق الهدى والصواب . قال الشاعر [الطويل] (153) :

- 27- وَأَجِدُ بِ (فاس) أَنْ تُرَاجِعَ رُشْدَهَا وَقَدْ رَحَضَتْ (مَرَاكُش) غَيْهَا رَحَضَا
31- فَحَيَّوْكَ مِنْهَا بِالْخِلَافَةِ حَيْثُ لَمْ يَدْعُ جَدُّ أَعْرَاقِي الْخِلَافَ لَهَا نَبْضَا
32- تَشِيعَتِ الْأَمْصَارُ فِيكَ فَرَحَزَحَتْ عُدَاكَ عَنْ أَعْلَى مَنَابِرِهَا رَمْضَا

وبعد مدن الشمال المغربي أتت بيعة مدن الساحل والوسط من رباط الفتح إلى قصر ابن عبد الكريم ومكناسة . قال ابن الأثير [الطويل] (154) :

- 26- بِفَتْحِ رَبَاطِ الْفَتْحِ تَرْتَبِطُ الْمُنَى وَيَحْطَى بِهَا مَنْ بَاتَ نَارَ الْوَعَى يَحْطَى

(151) د/ص 383

(152) د/ص 80 ، ص 81 . انظر كذلك د/ص 347 بيت 21، 22، 23، 24

(153) د/ص 348

(154) د/ص 348

وقال [الطويل] (155) :

27- وَيَا لَشَرِيشَ وَالْجَزِيرَةَ يَالَهَا وَمَكْنُاسِيَّةَ وَالْقَصْرَ عَزَّ فَلَاحًا وَهَصَا
28- وَأَنْتَ رِيَّاشًا فَاسْتَحْتَّ لِذَغْوَةٍ عَلَى رَبِّهَا أَنْ يَكْفِي الْحَسَّ وَالْحَصَا

ثم جاءت مدن أقصى الجنوب فكانت بيعة سجلماسة مع حاكمها عبد الله الهزرجي (156) قال ابن الأثير [البيضا] (157) :

1- فَوَاتِحُ الْفَنَحِ تُنْبِي عَنْ تَوَالِيهِ لَقَدْ تَمَهَّدَ مُلْكُ أَنتَ وَالِيهِ
4- أُمْتُ إِمَامِ الْهُدَى غُرًّا مُحَجَّلَةً كَأَنَّهَا فِي تَبَارِيهِهَا مَذَاكِيهِ
9- عَلَى خِلَافَتِهِ الْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ فَحَاضِرُ الْخَلْقِ طَوْعًا مِثْلُ بَادِيهِ
12- بُشْرَى سَجْلَمَاسَةٍ أُعْطَتْ مَقَادَّتُهَا يَدِي إِمَامٍ مُعَاطِبُهَا أَيَادِيهِ

7 — نكبة ابن الأثير الثانية :

نجد في ديوان ابن الأثير — زيادة على القصائد التي قالها في طلب العفو من أبي زكريا في محنته الأولى ، وضمن أغلبها كتابه إعتاب الكتاب — قصائد أخرى عديدة في طلب العفو من هذا السلطان نفسه . مما يدل على أنَّ الشاعر تعرَّض إلى غضب أبي زكريا مرة ثانية . وحسب المصادر التاريخية ، نفاه في هذه المرة إلى بجاية ، وبقي مدة طويلة استمرت إلى نهاية حكم المولى أبي زكريا سنة 1249/647 (158) .

ويدو أنَّ السلطان لم يأمر ابن الأثير بالرحيل وإنما حرمه من الامتيازات التي كان أمثاله من الكتاب والشعراء يتمتعون بها فساءت حاله ماديا حتى أصبح الشاعر في حالة

(155) د/ص 340

(156) قتله في نفس السنة — أي سنة 1242/640 — الخليفة السعيد الموحدي واسترجع المدينة .

(157) د/ص 411

(158) ذهبنا إلى هذا التحديد نظرا إلى أنَّ جلَّ القصائد التي قالها الشاعر يطلب العفو من أبي زكريا ذكر فيها الأمير محمدا باعتباراه وليا للعهد ومن المعلوم أنَّ هذا الأخير تولى عهد أبيه بعد وفاة أخيه يحيى سنة 1248/646 . زيادة على ذلك ذكر أبو المطرف ابن عسيرة في إحدى رسائله (انظر ابن شريفة : أبو المطرف ص 148) أنَّ ابن الأثير كان ببجاية سنة 1249/657 وما قبلها .

من الضنك والفقر يُرثى لها ، فيتحدث عن أطفاله وجوعهم بطريقة تذكّرنا بأطفال الحطية وهو مُلقى في غياهب سجن عمر بن الخطاب . قال [الطويل] (159) :

- 10- وَلَوْلَا أَطِفَالُ طَوَاهُمْ طَوَاهُمْ فَأَعْظَمُ مَا يَنْقَى جُلُودَ وَأَعْظَمُ
12- هُمْ أَبْدَا هَمِّي فَلَيْلِي أَلِيلُ بِمَعْجَزَتِي عَنْهُمْ وَيَوْمِي أَسْوَمُ
13- جَوَانِحُهُمْ تَذْكُرُ لَهْيَا وَلَتَنْظِي وَأَعْيُنُهُمْ تُهْمِي نَجِيعًا وَتُسْجَمُ
14- تَخَالُهُمْ فِي شَجْوِهِمْ وَائْتِحَابِهِمْ حَمَامًا عَلَى أَفْنَانِهَا تَتَرْتَّمُ

ومع ذلك لم يتسرع الشاعر في الرحيل بل بقي يترقب عفوا من لدن السلطان [الطويل] (160) :

- 15- وَرَجَيْتُ أَيَّامِي وَرَجَيْتُ فُرْجَةَ وَلَمَّا يَسِرْ مُسْتَرَى بِرَحْلِي وَمُنْجَمُ
16- كَفَانِي الرُّضَى وَالْإِذْنَ زَادَا لِبَطْنِي هُمَا إِلَيَّ مَعْنَى حَيْثُ كُنْتُ وَمَعْنَى
17- وَكَمْ رُمْتُ فِي دَارِ الْخِلَافَةِ - أَيْدَتْ - قَرَارًا فَأَغْيَا ، وَالْمَوَاهِبُ أَسْنَمُ
18- وَكَمْ لَحْتُ مَصْنُودًا يُلَوِّحُنِي الصُّدَى وَبَحْرُ نَدَاهَا مُزِيدُ الْمَوْجِ حَضْرَمُ
ولمّا يَس من ذلك اضطرّ إلى الرحيل [الطويل] (161) :

- 7- بِرَغْمِي أَزْمَعْتُ الْمَسِيرَ عَنِ الْعُلَى وَصَرَفُ اللَّيَالِي لِلْمُجْبِينَ مُرْغَمُ
9- دَعَانِي لِتَرْجَالِي اضْطِرَارًا وَلَمْ يَزَلْ يُحْلِلُ مَا أَضْحَى عَلَى الْمَرْءِ يَحْرَمُ
10- وَلَوْلَا أَطِفَالُ طَوَاهُمْ طَوَاهُمْ فَأَعْظَمُ مَا يَنْقَى جُلُودَ وَأَعْظَمُ

إن تقدّم سنّ الشاعر واضطراره إلى الرحيل ثانية بعد أن اتخذ عاصمة الخلافة الحفصية وطناً ثانياً له ، ليحزّ في نفسه ويؤلمها ويجعله يتجرع مرارة خيبته وحرمانه علماً . قال [الوافر] (162) :

- 38- أُجِبْتُ إِلَى الْوَدَاعِ وَقَدْ دَعَانِي عَلَى كَلْفٍ بِرُحٍ وَاشْتِيَاقِ
39- وَمَا دَارُ الْإِمَارَةِ بِأَلَيْسِي لَا أَبِيتُ لَيْسِنَهَا حَضِلَ الْمَاقِي

(159) د/ص 259 .

(160) د/ص 259 .

(161) د/ص 258 .

(162) د/ص 391 .

- 40- وَقَدْ وَافَيْتُهَا عَبْدًا صُرَاحًا فَكَيْفَ أُعْيِبُ مُلْكِي بِالْإِبَاقِ
41- لَقَدْ فَدَحَ الْعَرَاءُ فَلَمْ يُطْفِئْهُ رَجِيْلٌ مَا أَرَاهُ بِالْمُطَاقِ
42- فَإِنْ رَأَفْتُ جِسْمًا فِي سَرَّاحٍ فَقَدْ فَارَقْتُ قَلْبًا فِي وَثَاقِ

وبصيص الأمل الذي يقى يستنير به الشاعر في مدلهّمات المصائب هو أنّه منتقل من عاصمة السّلطان إلى مدينة ولي العهد . وما حرم منه لدى الأول قد يستعيده لدى الثاني . وعسى أن يكره المرء ماله فيه تحقيق رغباته وأمانيه . قال [الطويل] (163) :

- 20- عَلَى أَتْنِي مِنْهَا إِلَيْهَا تَنْقَلِي لِيُفَرِّجَ بَابَ فِي التَّكْسِبِ مِنْهُمْ
21- أَلَيْسَ وَلِيَّ الْعَهْدِ قَبْلَتِي الَّتِي أَوْجُهُ وَجْهِي نَحْوَهَا وَأَيْمُكُمْ
22- عَسَى لَا تَنْقَالَ الْحَالِ نَادَتْنِي الْمُنَى فَلَا مِرْيَةَ أُنِّي مُنَادَى مُرْخَمُكُمْ
5- وَإِنَّ لَهُ بِالنَّاصِرِيَّةِ نَاصِرٍ يَقُلُّ حَمِيسَ الْبُؤْسِ وَهُوَ عَرَمَرَمُكُمْ

وفي بجاية يقضي الشاعر عدّة سنوات ، ويلتقي بصديقه أبي المطرّف بن عميرة ، و يترجم له الغبريني باعتباره أحد أعلام هذه المدينة . وبها يضع أو يكمل عدّة تصانيف ، و يترقب من السّلطان عفوا فلا يحصل عليه ، فيشكو ويتذمّر لقد طال غضب السّلطان فطال الانتظار وعيل الصّبر . قال [الرملي] (164) :

- 1- أَسْرَفَ الدَّهْرُ فَهَلَّا قَصْدًا مَا عَلَيْهِ لَوْ شَفَى بَرْحَ الصَّدَى
2- يَنْقُضِي يَوْمِي كَأَمْسِي حَيَّةً أَبَدًا أَقْرَعُ بَابًا مُوَصَّدًا
3- طَالَ قَدْ جِي لَأَمَانٍ أَخْلِفْتُ وَعَنَاءٌ قَدْ ذُحْ زُنْدٍ صَلْدًا
8- لَا أَوْدُ الْعُمَرَاءَ الْقَوَاهُ إِذَا عَزَّ فِيهِ مَا يُقِيمُ الْأَوْدَا
9- حَسْبِيَ اللَّهُ لِشَيْءِي نُوبٍ لَيْسَ يُخَصِّمُهَا حِسَابُ أَبَدَا
10- قَدْ خَلَعْتُ الصَّبْرَ فِي اثْنَائِهَا فَزُرْتُ جَهَنَّمَ وَلَيْسْتُ الْكَمَدَا
11- أَنَا جَارُ الْبَحْرِ إِلَّا أَنَّ لِي مِنْهُ فِي حَالِ الْوُرُودِ الثَّمَدَا
13- وَعَلَى ذَلِكَ يَا نَفْسِي فَلَا تَيْأَسِي إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ غَدَا
14- لِلْإِمَامِ الْمُرْتَضَى مِمَّا مَضَى خَلَفَ يُولِيكَ عَيْشًا رَغَدَا

(163) د/ص 9 — 258

(164) د/ص 60 — 159

ويبدو أنَّ الشاعر كان وهو ببجاية مغضوب عليه يتقاضى مرتباً كل شهر وكان ضئيلاً لا يفي بالحاجة . قال [الكامل] (165):

- 9- هَلْ شَرِبْتَ مِنْ أَبْحَرِ الْجَذْوَى سِوَى تَمْدٍ يَفِيضُ لِرَأْسِ كُلِّ هِلَالٍ
20- إِنْ لَمْ تُفْذَرْبِي ضَيْعَةً أَوْ صَنْعَةً فَضَيَّاعُ أَخْوَالِي مِنَ الْأَخْوَالِ

ولقد فكَّر الشاعر وقد غلب عليه اليأس أن يعصي أوامر السلطان ويعود بدون إذن إلى تونس . قال شاكياً متذمراً [الكامل] (166) :

- 46- يَا لِلزَّمَانِ أَعْلَى بِرَمَائِهِ أَصْبَحْتُ بِالْإِخْلَادِ فِيهَا أَقْنَعُ
47- لَا بُرءَ مِنْهَا يُسْتَفَادُ بِحِيلَةٍ فَأَلَى الرُّضَى بِالْحُكْمِ فِيهَا الْمَرْجِعُ
48- مِنْ أَيْنَ لِي صَبْرٌ عَلَى مُضَضِّ النَّوَى سُدْتُ إِلَى الصَّبْرِ الطَّرِيقَ الْمَهْيَعُ
49- لَوْلَا التَّكْرُّهُ أَنْ أُحِلَّ بِطَاعَةٍ لَسَعَيْتُ زَخْفاً أَسْتَقِيمُ وَأُظْلَعُ
50- وَبَانَ وَكَلْتُ إِلَى الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ عَذَبَ الْأَمْرُ مِنَ الْفِرَاقِ الْأَقْطَعُ

إنَّ ما يخفف عن الشاعر في كلِّ مرَّة يشكو فيها ويتذمَّر هو وجوده بجوار ولِّي العهد في بجاية وأمله في عفو السلطان . لكن قد ينسى كلَّ ذلك ويفقد السيطرة على أحزانه فيقول متفجعاً [الوافر] (167) :

- 1- أَيْبَنَ وَاشْتَبَقَ وَارْتَبَاعُ لَقَدْ حُمِلْتُ مَالاً يُسْتَطَاعُ
3- وَرَوَّعَنِي الْفِرَاقُ عَلَى احْتِمَالِي وَمَنْ ذَا بِالتَّفَرُّقِ لَا يُرَاعُ
4- بَعَيْنِ اللَّهِ حِفْظِي دُونَ يَخْيِي وَكُنْمِي مَا يَضَاعُ وَمَا يُذَاعُ
5- لَزِمْتُ الصَّبْرَ حَتَّى عَيْلَ صَبْرِي وَبَانَ الْعُذْرُ إِذْ جَدَّ الزَّمَاعُ

ويبدو أنَّ الشاعر مرَّ بثلاث مراحل في الشكوى والاستعطاف وهو ببجاية . ففي الفترة الأولى — ويبدو أنه لم يتصل بعد بأمر ببجاية وولِّي العهد — كان يستشفع بأبناء أبي زكريَّا دون تحديد. قال [الوافر] (168) :

- 26- أَمْوَلَايَ وَمَا أَوْلَيْتَنِيهِ فَأَتَمِّمْنَهُ، مِنَ النِّعَمِ الْجِسَامِ
27- وَسَوْغَنِي التَّشْفَعِ فِي الرُّضَى مِنْ بَنِيكَ بِكُلِّ جَحْجَاحٍ هُمَامِ

(165) د/ص 40 — 239 .

(166) د/ص 354 .

(167) د/ص 5 — 364 .

(168) د/ص 262 .

- 28- برانسي طُولُ إقْصَاءِ غَرَانِي وَفِي بُعْثَاكَ بُرْءٌ لِلْكَلامِ
29- وَلَوْ أَنِّي لَكُنْتُ الْجُودَ مِنْهَا غَفَتْ بِالرَّيِّ آثَارُ الْأَوَامِ

وفي مرحلة ثانية استشفع بولي العهد دون تعيين هل هو يحيى أو محمد ؟ قال
[البسيط] (169) :

- 73- عَلِمِي بِآلِ أَبِي حَفْصٍ يُعَلِّمُنِي مَدَائِحَ ابْنِ حُسَيْنٍ آلِ جُمْدَانَا
74- وَصِدْقَ حُبِّي لَا سُلُوءَانَ يُكْذِبُهُ فِيهِمْ وَإِنْ أَتْبَعَ الْهَجْرَانُ هَجْرَانَا
75- عَسَى وَعَلَّ وَلِيَّ الْعَهْدِ يَشْفَعُ لِي فَاسْتَعِيدَ مِنَ التَّقْرِيبِ مَا بَانَ

وكانت المرحلة الثالثة في آخر أيام السلطان أبي زكريا ، فقد مات ولي العهد أبو يحيى فاغتم والده لوفاته واعتل ، وكان ذلك فرصة للشاعر ليصل إلى قلب أبي زكريا وقد نال منه الغم والمرض ، فينال رضاه . قال بعد أن هتأه بشفاته من مرضه
[الوافر] (170) :

- 18- أَمْوَلَايَ أَنَادِي مِنْ بَعِيدٍ يُظْفِرُنِي بِإِذْنَائِي التَّذَاءُ
19- وَلَوْ أَنَّ الْهَوَى بِالْقَصْدِ وَافٍ لَطَارَ إِلَيْكَ (بِالْقَلْبِ) الْهَوَاءُ
26- لَعَلَّ غَلَاكَ ثَوْسِيغِي بِحُبِّي قَبُولًا . إِنَّهُ نَعَمَ الْجِيَاءُ

وليسرع بنيل رضى السلطان تشفع بولي العهد الجديد محمد وهو الذي خلف أخاه يحيى في ولاية العهد وعلى إمارة بجاية . قال [الكامل] (171) :

- 11- وَلَئِنْ عَلَنكَ مِنَ الضُّئَى سِمَةٌ فَالْمَشْرِفِي يَزِيئُهُ الْقَلِيلُ
12- بِشِفَائِكَ الْمَيِّمُونَ مَطْلَعُهُ نَكَصَتْ عَلَى أَغْقَابِهَا الْعَالِلُ
36- يَا حَادِي الْخُلَفَاءِ مَغْذِرَةٌ إِنَّ الْأَيَادِي مَا يَهَا قَبِيلُ
37- وَعَسَى قَبُولُكَ أَنْ تُجُودَ بِهِ حَلِيًّا لِحَالِ شَأْنِهَا الْعَطْلُ
38- أُمْلِي إِلَيَّ عَلَيْكَ مُنْقَطِعٌ وَتَوَسَّلِي لِرِضَاكَ مُتَّصِلُ

(169) د/ص 311

(170) د/ص 51 .

(171) د/ص 2 - 241 .

39- أَكُلْ اخْتِيَارِي لِاخْتِيَارِكَ لِي وَعَلَى وَلِيِّ الْعَهْدِ أَتَّكِلُ
40- حَسْبِي الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ سَدًا بَجَلَالِهِ يُسْتَدْفَعُ الْجَلَلُ

وأخيرا يحصل الشاعر على عفو السلطان ، فكان يوم وصوله بالنسبة إليه عيداً ثالثاً
يضاف إلى عيد الاضحى وعيد الفطر [الوافر] (172) :

45- قَدْ عَزَّرَ الْعِيدَيْنِ عِنْدِي ثَالِثُ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى وَيَوْمُ رِضَاهُ

وقد عبر الشاعر عن بهجته بهذا العفو في قصيدة أخرى فقال [الطويل] (173) :

3- وَرَدْتُ نَدَاهُ الْعَمَرَ غَيْرَ مُصَرِّدٍ وَنَلْتُ رِضَاهُ الْجَمَّ غَيْرَ مُصَرِّمٍ

8 - القبائل :

إن حديث ابن الأثير عن القبائل يندرج في نطاق علاقة هذه القبائل بالدولة الحفصية الفتية .
ولم تكن هذه العلاقة حسنة في كثير من الأحيان لهذا نجد ابن الأثير - وهو الناطق الرسمي
باسم السلطان الحفصي - إمّا متشفياً مما أصاب هذه القبائل أو مهتداً لها لما سيؤول إليه أمرها
على يد الممدوح . قال متشفياً [الكامل] (174) :

19- وَإِقْبَالَكُمْ سَلَبَ الْقَبَائِلِ بَأَوْهَا (175) وَكَسَا الْبُطُونُ الْهَوْنَ وَالْأَفْعَادَا

وقال مهتداً [الزمل] (176) :

57- لَيْسَ يَرْجُو مَنْ عَصَى مُعْتَصِمًا مِنْ عَوَالِيهِ وَلَا مُعْتَصِرًا (177)

58- هَذِهِ الْأَحْيَاءُ قَدْ دَوَّخَهَا فَسَلَّ الْبَيْضَ بِهَا وَالسُّمْرَا

60- غَادَرَ الْقَدْرُ وَمَنْ دَانَ بِهِ لِلْعَوَالِي وَالْعَوَافِي جَزَرَا

(172) د/ص 410 .

(173) د/ص 288 .

(174) د/ص 184 .

(175) البأو : الفخر والتكبر .

(176) د/ص 188 .

(177) الملجأ .

وهذه القبائل على ثلاثة أصناف :

— صنف أول : قبائل من أحلاف مناوئية من الموحدين أو بني عبد الواد . ومن هذا الصنف نجد :

— قبيلة سفيان التي كانت مع السعيد عندما هجم على تلمسان وقتل سنة 1248/646 . قال ابن الأبار [السيط] (178) :

49— سَافَتْ رِيَّاحُ الْمَنَآيَا مِنْ سُورِفِهِمْ سَفِيَّانَ فَأَنْهَزَمَتْ يَا وَيْحَ سَفِيَّانَا

— وعرب المعقل وهم ممن تخلّوا عن السعيد في حصاره لتلمسان وكانوا مع الخلط السبب المباشر في انكساره ومقتله (179) . قال ابن الأبار [السيط] (180) :

50— وَالْمَغْفَلِيُّونَ لَوْلَا أَنَّهُمْ عَقَلُوا (181) نَجَّاءُهُمْ مَا نَجَّوْا شَيْئًا وَشُبَّانَا

— وبنو سويد من بني مالك بن زغبة وكانوا أحلafa لبني عبد الواد (182) مناوئين لأبي زكريا وخاصة عندما زحف على تلمسان سنة 1242/640 . قال ابن الأبار [وافر] (183) :

65— وَابَّ مُسَوِّدٌ لِيْنِي سُوَيْدٌ مَقُودٌ بِالْجَرَّائِرِ فِي جَرِيرٍ (184)

— صنف ثان : من القبائل يذكر الشاعر عداوتهم لبني حفص ولكنهم اضطروا في نهاية الأمر إلى الخضوع لهم كقبيلتي زغبة ورياح من بني هلال . وكانت الأولى مقيمة

(178) د/ص 309 .

(179) ابن خلدون : العبر : 535/6 .

(180) د/ص 309 .

(181) د/ص الشاعر يعتبر غدر عرب المعقل بالسعيد الموحد هو ضرب من التعقل أنجاهم من الهلاك على يد ممدوحه أبي زكريا .

(182) ابن خلدون : العبر : 95/6 .

(183) د/ص 197

(184) د/ص جرير : زمام الثقة أو الحبل .

في المغرب الأوسط والثانية في الزّاب قد لعبتا دورا خطرا فيما جدّ من أحداث في نهاية القرن 12/6 وبداية 13/7 بالمغرب⁽¹⁸⁵⁾ . وكان لهاتين القبيلتين دور كذلك منذ منتصف القرن 11/5 في خراب مدينة القيروان وقد ذكرهما بكلّ سوء شاعرا عاصمة الأغالة ابن رشيق وابن شرف . قال ابن الأبار فيهما [كامل]⁽¹⁸⁶⁾ :

5- وَحَكَّتْ أَجَادِلُ زُغْبَةٍ زُغْبَ الْقَطَا وَغَدَتْ رِيَّاحُ بَنِي رِيَّاحٍ رُكْدًا

وقد أذعنت هاتان القبيلتان لأبي زكريّا بعد أن ضيق عليهما الخناق وكان خضوعهما سببا لنجاتهما . قال ابن الأبار [الوافر]⁽¹⁸⁷⁾ :

60- وَلَوْلَا أَنَّهُمَا رَكَدَتْ «رِيَّاحٌ» لَبَاءَتْ مِنْهُ بِالْيَوْمِ الْعَسِيرِ

61- وَزَاغَتْ زُغْبَةٌ ثُمَّ اسْتَقَامَتْ فَقَدْ عَادَتْ بِعَفْوٍ مِنْ قَدِيرِ

64- وَبَيْنَ الرَّاغِبِينَ وَبَيْنَ زُغْبٍ تَحُولُ عُرْفَهَا نَحْوَ الْكَبِيرِ

وتبعتهما في ذلك قبيلة شدّاد . فقال الشاعر [الوافر]⁽¹⁸⁸⁾ :

62- وَشَادَ نَجَاسَةً شَدَادٍ خُضُوعٌ وَفِي أَعْمَارِهِمْ خَتَمُ الدُّثُورِ

ومن هذه القبائل التي تمّ لبني حفص السيطرة عليها قبيلتي زنّانة وهوّارة البربريتين . وكانتا في أوّل الأمر مع بني غانية ضدّ الموّحدين ، ثمّ ضدّ الحفصيين مع بني عبد الواد . قال الشاعر مهّددا زنّانة بمناسبة فتح أبي زكريّا لتلمسان [البيسط]⁽¹⁸⁹⁾ :

38- بَشِّرْ زَنَّاةً بِالْهَيْجَاءِ مُسْفِرَةً عَنْ كُلِّ ذِي قَدْرِ لَا حَوْلَ يَذْرُؤُهُ

وهوّارة : وهم فرع من قبيلة صنهاجة ، ولها بطون كثيرة سكن بعضهم طرابلس

(185) ابن خلدون:العبر : 44/6 و 632 .

(186) د/ص 167 .

(187) د/ص 196 .

(188) د/ص 196 .

(189) د/ص 44 .

وبرقة وقطن أخرون أوراس . قال الشاعر [الطويل] (190) :

22- بِحَسْبِكَ فِي هُوَارَةٍ وَزَنَائَةٍ وَقَائِعُ هَابَتْهَا سُلَيْمٌ وَعَامِرٌ

ولئن نوه الشاعر بهم ومجد بطولتهم وخاصة زناته فليظهر مدى قوة ممدوحه وشجاعته على طريقة عنتره في الفخر [الطويل] (191) :

9- عُصَاةَ أَطَاعَ اللَّهَ فِيهِمْ مُبِيرُهُمْ فَحَصَّهُمْ قَدْأَ وَعَتَّتُهُمْ دَقَّا

10- أَخَامِسُ ثَمِيهِمْ زَنَائَةُ لِلْوَعَى وَحُقَّ عَلَى الْأَغْصَانِ أَنْ تُشْبِهَ الْعُرْقَا

11- تَرَى بِهِمْ مِنْ قَامَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ رُدِّيئَةً ذُبْلًا وَهَنِيئَةً ذُلْقَا

12- وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ لَيْسَ تُعْدِيهِمُ الطُّبَى فَمَا مِنْهُمْ مَنْ لَأَنْ طَبْعًا وَلَا رَقَا

13- غَلَاظٌ فِظَاظٌ مَا لِعُذْرَةٍ (192) عِذْرَةٌ لَدَيْهِمْ إِذَا هُمْ أَخَذُوا مَوْتَهُمْ عِشْقَا

14- وَأُخْرَقَ خَلْقُ اللَّهِ حَتَّى إِذَا رَدُّوا لِسْفَى الرَّدَى أَقْرَأَهُمْ بِهِرًا جِدْقَا

15- أَتَتْهُمْ جُنُودُ اللَّهِ (193) تَصْنُدُ صَمَدَهُمْ فَحُقَّ عَلَيْهِمْ صَبْحَةُ السَّبْتِ (194) مَا حَقَّا

وبدأت هذه القبائل تغيير مواقفها من الدولة الحفصية بعد فتح تلمسان . فقال الشاعر مبيّنا تخلي قبيلة زناته القوية عن الطرق التي كانت تستعملها ضد خصومها [وافر] (195) :

63- وَزَانَ زَنَائَةً أَنْ لَمْ يَشْقُفْهَا شِقَاقُ جَامِعٍ وَزَرَ لِـلـزُّورِ

ويبدو أن هذه القبيلة بالذات خضعت للحفصيين أو لحلفائهم بني عبد الواد ، وربطت مصالحها بمصلحة دولتهم . ولهذا نرى الشاعر ينوّه بشأنهم قائلا [البيسيط] (196) :

51- لِلَّهِ صِيْدُ زَنَاتِيُونِ تُحْسِبُهُمْ أَسْدًا إِذَا افْتَرَسُوا الْأَقْرَانَ سَيِّدَانَا

(190) د/ص 212 .

(191) د/ص 1 - 380 .

(192) قبيلة من العرب عرفت بالحبّ الطاهر العفيف حتى أصبح يُعرف بها .

(193) جنود الممدوح وهو أبو زكريّا .

(194) يوم فتح تلمسان 1242/640 .

(195) د/ص 196 .

(196) د/ص 309 .

- 52- أَحَلَّهُمْ رُتَبَ الْأُمَلَاكِ جَدُّهُمْ فِي خِدْمَةِ الْقَائِمِ الْحَفْصِيِّ عِنْدَنَا (197)
53- صَالُوا صُقُورًا يَخْرَانِ (198) جَعَتْ قَرْقَا وَطَالَ مَا صَرَصَرَتْ فِي الْحَرْبِ عِقْبَانَا

أما الصنف الثالث فهي قبائل يبدو أنها استمرت إلى حين على عداوتها للحفصيين كبنو سليم (199) وكانوا مع ابن غانية ضد الموحيدين ثم الحفصيين وبنو الجبار (200) وهي قبيلة نازلة قرب بجاية . قال الشاعر متشفياً فيهما لما بدد شملهما أبو زكريا [الوافر] (201) :

- 66- وَجِئْتُ مِنْ بَنِي الْجَبَّارِ أَوْدَى عَلَى صُغُرٍ يُلْهَذِمُهُ الطَّرِيرُ
67- وَضَحَى بِالْعُصَاةِ بَنِي سَلِيمٍ ضَحَى يَوْمٍ عُبُوسٍ قَمْطَرِيرٍ

ومن هذا الصنف يذكر ابن الأثير قبيلة سدويكش المقيمة بين قسنطينة وبجاية (202) وأحد فروعها أولاد سواق (203) . قال وقد نال منهم الممدوح [الوافر] (204) :

- 32- أَعْنُ سُدُويكشُ تَبْوَظْأَهُ وَمِنْ عَادَاتِهِمَا فَرِي الْفَرِي
46- وَكَيْفَ رَجَا ابْنُ سَوَاقٍ نَجَاةً وَلَيْسَ لِمَا عَنَاهُ بِالنَّجَاةِ

(197) إن خدمتهم للدولة الحفصية يؤتاهم رتب الملوك والأسايد . وأشار صاحب مقال (زناتة) في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية ج 10 ص 416 أن فرعا من زناتة أصابه الوهن في السهول حيث غدوا عبيدا للعرب الرحل .

(198) يخران : ذكور الأرناب .

(199) د/ص 196 تعليق 25 — ابن خلدون : العبر : 71/6 — 596 .

(200) د/ص 196 تعليق 24 — ابن خلدون ص 101 .

(201) د/ص 197 .

(202) ابن خلدون : العبر : 303/6 .

(203) ابن خلدون : العبر : 304/6 .

(204) د/ص 427 .

وكان الشاعر وهو يمدح الحفصيين يخيف القبائل العربية بما فعله الممدوح بالقبائل البربرية قال [الطويل] (205) :

- 22- بِحَسْبِكَ فِي هَوَارَةٍ وَزَنَائَةٍ وَقَائِعُ هَابَتِهَا سُلَيْمٌ وَعَامِرٌ
23- تُعَادُ إِلَى التَّحْرِ الْوَحْيِ قُدُومُهَا بِمَا عَظُمَتْ آثَارُهَا وَالْجَرَائِرُ

ويخيف جميعهم بتذكيرهم بوقائع الحفصي فيهم . قال [الطويل] (206) :

- 47- لَهَا (207) فِي سُلَيْمٍ مَالُهَا فِي زَنَائَةٍ وَهُوَارَةٍ مِنْ عُدَّةِ الْهَضْ (208) وَالرَّهْصِ (209)

والشاعر في حالات اندفاعه التمجيدي لأبي زكريا يجمع مختلف القبائل والأجناس في فرعها من الممدوح ، فلا ترى ألا وفودها وهي تقدّم له فروض الطاعة والخضوع . قال [الطويل] (210) :

- 5- لَكَ الْخَيْرُ هَذِي الْعُجْمُ وَالْعَرَبُ تَعْتَدِي بِهَا مُنْشَاتٌ أَوْ نَرُوحُ رَوَاحِلُ
6- تَمْلِكُهَا رُغْبٌ وَرُغْبٌ مُحَامِرٌ فَرُسٌ عَلَى حُكْمِ الْمُنَى وَرَسَائِلُ
7- وَرَدَّ عَلَى رَغَمِ الْأُتُوفِ وَجُوهَهَا إِلَيْكَ أُسَاطِيلُ سَطَتْ وَجَحَافِلُ

9 — الدّولة الموحّدية :

إن موقف ابن الأبار من الدّولة الموحّدية هو موقف ملتزم للسياسة الحفصية. لهذا لا يترك أية فرصة تمرّ — وهو يمدح سلاطين هذه الدّولة الصّاعدة وأمرائها — إلا ونال من دولة عبد المؤمن الضّعيفة المنحلّة ، وذلك بالتّنديد بأعمال أواخر خلفائها منذ المأمون الموحدي ، وبالتّحريض عليها للتخلّص منها .

(205) د/ص 212 .

(206) د/ص 334 .

(207) خيول الممدوح .

(208) العصر .

(209) الكسر .

(210) د/ص 236 .

ومن وجهة النظر هذه يرى ابن الأثير — بصفة عامة — أن دولة الموحدين هي دولة قد انتهى أمرها كما انتهى أمر بني أمية في المشرق مع آخر خلفائهم مروان الملقب بالحمار . وبنو عبد المؤمن هم أنفسهم على يقين من هذه الحقيقة . قال [الطويل] (211) :

- 41— فَقَدْ أَبْصَرُوا الْأَخْلُودَ لِمُلْكِهِمْ وَإِنْ أَصْبَحُوا غُمِّي الْبَصَائِرِ كَالْخُلْدِ
42— وَبِالْغَرْبِ مِنْ أَغْصَانِهِمْ غَيْرُ غُبَرٍ تَيَقَّنَ أَنْ تُرْدَى إِذَا جَيْشُهُ يُرْدِي
43— وَهَلْ مَلَكَتْ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مَقْوَدًا أُمِيَّةٌ بَعْدَ مَرَوَانِهَا الْجَعْدِ

والشاعر يتجنب تسمية الدولة الموحدية باسمها ، لأن الموحدين الحقيقيين — في نظره — هم الذين حافظوا على دعوة المهدي وصحبه ، وهم الحفصيون . فتراه يسميهم تارة بني يعقوب نسبة إلى جدّهم يعقوب المنصور الخليفة الموحي الرابع وبطل معركة الأرك الشهيرة . قال ابن الأثير [الكامل] (212) :

- 28— أُمَّا بَنُو يَعْقُوبَ قَدْ أُوْدِيَ بِهِمْ مِنْ بَأْسِهِ الْإِرْهَابُ وَالْإِرْهَاقُ

وتارة يرجع نسبهم إلى قيس أي قيس عيلان من عرب قحطان . وهذا في نظر ابن خلدون منكر من القول وزور . قال الشاعر [الطويل] (213) :

- 36— أَدَارَ عَلَى قَيْسٍ وَأُمْلَاكِهَا الرَّدَى فَلَمْ يَكُ عَنْهُمْ لِلْكَوَاكِبِ مِنْ رَدٍّ
37— وَتَا اللَّهُ مَا شَرُّ الْبِلَادِ وَغَرِبَهَا لِسُلْطَانِهِ إِلَّا هَذَا يَا مُسْتَهْدِ

ووجد ابن الأثير في مواقف بعض خلفاء الموحدين وسلوكهم مجالا للتنديد بهم والتنويه بيمدوحه أبي زكريا . فقد رفض المأمون الموحي ، بعد رجوعه إلى مراكش من الأندلس سنة 1228/626 ، مذهب ابن تومرت «وأشاع التكبير على المهدي في العصمة وفي وضع العقائد والتداء للصلوات باللسان البربري وأسقط اسم الإمام في الخطبة والسكة وأعلن بلعنه» (214) واستغل أبو زكريا هذا الانحراف عن الدعوة

(211) د/ص 165

(212) د/ص 388

(213) د/ص 164

(214) العبر ط . دي سلان 1847 ص 386

الموحديّة فقطع الخطبة للمأمون سنة 1228/626 وأسندها لمنافسه يحيى بن التّاصر ثمّ أزال اسم التّاصر من الخطبة 627/ نهاية فيفري 1229 . وأصبحت الخطبة باسم المهدي والخلفاء الرّاشدين . وباتت الدّولة الحفصيّة تمثّل الاستمراريّة الشرعيّة للدّولة الموحديّة ، بل هي التي أنقذت الدّعوة المهديّة من الانحراف وأقامت الحقّ بعد خمود . قال ابن الأبار [الرّمّل] (215) :

20- إِنْ مَّا دَوْلَةُ يَحْيَى رَحْمَةً لِلْبَرَايَا وَحَيَاةً لِلْهُدَى
23- نَشَرَتِ الدَّعْوَةَ لَهَا هَمْدَتْ وَأَقَامَ الْحَقُّ لَهَا قَعْدًا

والمحاطة على دعوة المهدي من الزّيع والانحراف ، أو الاضمحلال والزوال هو هدف سام دعا إليه جدّ الحفصيّين وهو أبو حفص أحد أتباع المهدي العشرة . ولم يكتف بذلك بل وصّى به أبناءه من بعده ، لذلك لا يمكن لمّدّع أن يدّعي أنّ الحفصيّين اتخذوا من الدّفاع عن مذهب المهدي ذريعة للوصول إلى السلطة . فهذا المذهب هو جزء من عقيدتهم ورثوه أبا عن جدّ . قال ابن الأبار [الطّويل] (216) :

40- هِيَ الدَّعْوَةُ الْمَهْدِيَّةُ اسْتَحْلَصَتْ لَهَا نَهْيَ الْقَائِمِ الْهَادِي فَكَانَ لَهَا خِلَاصًا
41- يَظْهَرُهَا وَصَى أَبُو حَفْصٍ الرُّضَى بَيْنَهُ فَوْقَى دُونَهُمْ مَا بِهِ وَصَى

وهكذا ينفرد الحفصيّون بالشرعيّة الموحديّة عوضا عن حكام مرّاكش ، فدولتهم هي دولة مهديّة عقيدة ومذهبا ، عمريّة (نسبة إلى عمر بن الخطاب) نسبا وسلوكا . قال الشاعر [الكامل] (217) :

35- وَإِنِّي أَلَا مَهْدِيَّةً عُمَرِيَّةً أَوْذَى بِدَعْوَتِهَا الضَّلَالُ وَطَاحَا

وتمسّكها بالدّعوة المهديّة في الأرض سيّأتها السّنَد من السّمَاء قال [البسيط] (218):

17- بِمَظْهَرِ الْعَالَمِ الْعُلُوِّيِّ مُتَّصِلٌ وَبِاتِّبَاعِ هُدَى الْمَهْدِيِّ مُتَّصِفٌ

(215) د/ص 160

(216) د/ص 342

(217) د/ص 115

(218) د/ص 374

وكان المأمون الموحدي عندما عزم على مغادرة الأندلس والرجوع إلى مراكش استعان بفرقة مرتزقة من الجيش التصرائني رافقته في عبوره من العدو الأندلسية إلى العدو الإفريقية . واشترط عليه ملك قشتالة الذي أمده بهذه الفرقة أن يسمح للتصاري ببناء كنيسة لهم بعاصمتهم مراكش .

ووجد الشاعر في هذه العلاقات مع التصاري الفرصة للتنديد بالمأمون الموحدي وبمن جاء بعده من الخلفاء ونهجوا نهجه . وهو يأمل أن تكون المرحلة الثانية بعد استيلاء الممدوح على تلمسان ووصول بيعة فاس وسبتة أن تأتيه بيعة الزوراء (بغداد) ، ولم يبق بعد ذلك إلا الدخول إلى مراكش منتصرا ، ناشرا فيها العدل والأمن ، ومطهرها من الكفر والرجس . قال [الطويل] (219) :

- 7- إِذَا الْمَغْرِبُ الْأَقْصَى رَمَى بِقِيَادِهِ إِلَيْهِ فَمَاذَا يَصْنَعُ الْمَشْرِقُ الْأَذْنَى
- 8- كَأَنِّي - بِالزُّورَاءِ تَخْطُبُ أَمْنَهُ وَقَدْ بَثَّ فِي مَرَائِشِ الْعَدْلِ وَالْأَمْنَا
- 9- وَزَحَزَحَ بِالتَّوْجِيدِ عَنْ جَنَابَاتِهَا عَصَائِبَ لِلتَّلْيِثِ جَارُوا بِهَا سَكْنَى
- 10- كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ لِلْمُؤْمِنِينَ مَعَانِيَا فَهَا هِيَ لِلْكَفَّارِ وَأَسْفَا مَعْنَى
- 11- يَعِزُّ عَلَى السُّلُوسِ الْمَصَافِعِ أَنَّهَا تُرَاطِنُ فِي أَفْذَانِهَا عُجْمًا لُكْنَا
- 12- هُمْ اتَّخَذُوا فِيهَا الْكُنَائِسَ ضِلَّةً وَهُمْ جَعَلُوا لِلَّهِ فِيمَا افْتَرَوْهُ ابْنَا
- 13- وَكَمْ سَيِّدٍ مِنْهُمْ يُطَاعُ اخْتِكَامُهُ عَهْدَنَاهُ عَبْدًا لِلْعَبِيدِ بِهَا قَنَا
- 14- ضَمَانٌ عَلَى سَيْفِ الْإِمَارَةِ بَرِيئُهُمْ وَإِبْرَاءُ قَوْمٍ يَبِينُ أَظْهَرُهُمْ ضَمْنَا
- 15- وَأَمَّا تِلْمَسَانُ وَفَاسٌ وَسَبْتَةُ فِتْلِكَ لِيُؤْمِنَاهُ أَعْتَنَاهَا تُتْنَى

وواصل الشاعر التأكيد على هذه النقطة في قصائده المدحية ، بعد أن تولى الخلافة السعيد الموحدي . وهو يرى أن هذا الخليفة بعيد كل البعد عن الإيمان بالله سواء أكان ذلك حسب العقيدة التصرائنية أو العقيدة الإسلامية . قال ابن الأبار يهجو السعيد ملقباً إياه بالغراب لأنه كان أسود اللون [البسيط] (220) :

- 5- مُسْتَبْصِرًا فِي عَمَى أَبْلَى الْأَذَانِ أَدَى مِمَّا اسْتَجَدَّ نَوَاقِيسًا وَصُنُبَانَا
- 8- لَمْ يَثْنِ غَيًّا إِلَى رُشْدٍ أَعْتَنَهُ لَا بَلْ تَعَلَّقَى أَصْنَامًا وَأَوْتَانَا

(219) د/ص 296

(220) د/ص 6 - 305

- 9- أَذَالَ مِنْ غُلَمَاءِ الْوُخْيِ يُخَزِّنُهُمْ بحيرة (221) الشَّركَ أَخْبَارًا وَرَهْبَانًا
 10- إِذَا هُمْ هَيِّنُوا (222) أَصْنَى لَهُمْ طَرَبًا يخال ذلك أوتارًا والحنان
 11- وَالْحَالُ شَاهِدَةٌ أَنْ لَيْسَ مُعْتَقِدًا حُكْمَ الْكَتَابَيْنِ إِنْجِيلًا وَقُرْآنًا
 21- بُعْدًا لَهُ مِنْ غُرَابٍ قَائِدٍ رَحْمًا (223) ملء الملا تعد الذئبان غدوانا

والسعيد عند ابن الأثير بقسوته وسوء معاملته لرعيته قد قبح خلقًا وخلقًا كما قبح سلوكا وسياسة عندما واصل الاستعانة بالتصاري ، قال الشاعر [البيضا] (224):

- 15- أَفَاضَ رَحْمَتَهُ (225) فَأَنْفَضَ مَعْشَرَهَا (226) إِلَيْهِ مِنْ حَوْلِ فَظِّ الْقَلْبِ (227) قَاسِيَهُ
 19- بِالرُّومِ رَامَ انْتِصَارًا فِي مَذَاهِبِهِ أَلَيْسَ قَدْ رَأَى مِنْ تَغَامِيهِ

ويربط الشاعر ثانية وهو يمدح أبا زكريا بين سواد لون السعيد وسوء سياسته بتعاونه مع الحامية القشتالية، ويقارن بينه وبين كبار المرتدين بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى . قال [الطويل] (228):

- 14- وَإِنَّ عَدُوَّ الدِّينِ مَنْ ظَاهَرَ الْعَدَى لِيُخَذِّلَهُ فَاسْتَنْصَرَ الشَّرْكَ وَاسْتَقْصَى
 15- بِعُبَادِ عَيْسَى هَاضِ أُمَّةَ أَحْمَدٍ لِأَشْيَائِهَا بِحُصَا وَأَعْيُنَهَا بِحُصَا
 17- ذَرَى الْأَسْوَدُ الْقَيْسِيَّ (229) أَنَّ أَمَامَهُ رَذَى الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيَّ (230) مُشَبِّهٍ خُرْصَا

(221) الحيرة : ملاءة الرهبان .

(222) الإشارة إلى ترانيم الرهبان .

(223) الرحم ج رحمة : طائر على شكل التسر خلقة مبقع بسواد وبياض معروف بالغدر والحمق .

(224) د/ص 412

(225) الضمير يعود على أبي زكريا .

(226) الضمير يعود على الخلافة .

(227) فَظُّ الْقَلْبِ : السعيد .

(228) د/ص 339

(229) الأسود القيسي : السعيد .

(230) الأسود العنسي : من زعماء المرتدين بعد وفاة النبي .

والسعيد بجيشه الوفير وحلفائه التصارى سوف لن يكون مصيره إلا كمصير غيره من الخائنين المغرورين . والحفصيون تعودوا مواجهة الكثرة بالقلة وانتصروا ، شأنهم في ذلك شأن المسلمين الأوائل . قال ابن الأثير [البسيط] (231) :

- 41- أُغِيَا الْمُنَاصِبُ تَقْوِيْمٌ يَقْرُبُهُ مِنْ فَوْزِهِ فَاعْتَدَى يَنْأَى وَيَنْأَدُ
42- وَالرُّومُ نَارَعُ أَمْرَ اللَّهِ يَا عَجَبًا! مَتَى تَوَازَنَ إِغْوَاءٌ وَإِرْشَادٌ؟
43- هَيْهَاتَ يَخْلُصُ وَالْأَقْدَارُ قَدْ وَضَعَتْ مِنْهَا لَهَا رُقُبٌ كَثُرَ وَأَرْصَادُ
44- كَمْ عَائِدٍ مِثْلِهِ لَمْ يَحْمِهِ وَزَرٌ كَانَتْ لَهُ عُذْدٌ خَائِتٌ وَأَعْدَادُ
45- لَا تُعْجِبِ الْخَائِنَ الْمَغْرُورَ كَثْرَتُهُ فَطَالَ مَا هَزَمَ الْآلَافَ أَحَادُ
46- أَبْنَاءُ صِيَابَةٍ حَفْصِيَّةٍ كَرُمُوا أَرْوَمَةٌ وَبَنُو الْأَمْجَادِ أَمْجَادُ

إن ابن الأثير في حديثه عن الموحدین بصفة عامة والسعيد بصفة خاصة ، إنما يعبر عن وجهة نظر أبي زكريا فيه . فالسعيد مثل ، بشخصيته القوية ومحاولة استرجاع هبة الخلافة ، آخر محاولة للتهوض بالدولة الموحدية من كبوتها ، وبالتالي جسم أكبر خطر على الدولة الحفصية . لهذا لما قتل وهو يحاصر يغمراسن أمير تلمسان في قلعة تامزجدرت آخر صفر 1248/646 نزل الخير بمقتله على نفوس الحفصيين بلسمًا شافيا ، ووجد ابن الأثير المجال فسيحا للتشفي من خليفة كثيرا ما هجاه وسخر منه . قال متحدًا عن حملة السعيد على تلمسان وما آل به الأمر على أبواب القلعة الحصينة [البسيط] (232) :

- 27- حَتَّى إِذَا الْعَطْبُ اسْتَحْيَى سَلَامَتَهُ أَفَاءَهُ يَتَغَفَّى بَغْيًا يَلْمَسَانَا
28- وَكَانَ مِنْ قِيلِهِ (هِيَ التَّرَاثُ لَهُ) مَا بَالُهُ جَهْلُ التَّضْجِيفِ لَا كَأَنَا (233)
29- ظَمَانُ رَاحٍ لِأَفْقِ الشَّرْقِ مُلْتَهُمَا لَكِنْ غَدًا يَنْجِيعُ الْجَوْفِ رِيَانَا
31- يَوْجَدَةُ أَظْهَرَ الْوَجْدُ الْجَمَامَ عَلَى حَيَاتِهِ فَنَضَاهَا عَنْهُ غَضْبَانَا
32- وَاسْتَقْبَلَ الْقَلْعَةَ الشَّمَاءُ فَاقْتَلَعَتْ رُوحًا لَهُ . حَبِثَتْ رُوحًا وَجُثْمَانَا

(231) د/ص 141 .

(232) د/ص 307

(233) عبارة (هي التراث له) إذا صحفت أصبحت : هي التراب له أي القبر .

وأشار الشاعر إلى الكمين الذي نصبه الزناتيون أتباع يغمراسن للسعيد ، فكان من نتيجته أن سقط الخليفة من فوق فرسه وأجهز عليه مع وزيره ابن عطوش . وانتهبت محلته وتفرق عسكره . قال ابن الأبار [البسيط] (234) :

34- حَتَّى الْجَوَادِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَعْصِيهِ أُرْدَاهُ يَقْصِيهِ بَغْضًا وَإِهْوَائًا
40- وَالْفُلُ مِنْ بَيْتِهِ أُوْدَى الْبَيَاتُ بِهِمْ عَلَى يَدَيِ أَيْدٍ كَالْغَضْبِ يَقْضَانَا

وسقط بعض حرم السعيد في الأسر كأخته تاغروش (235) . قال الشاعر [البسيط] (236) :

56- هَذِي بَنَاتُ أَبِيهِ فِي ظَعَائِنِهِ يُبْدِينَ لِلْسَّبْيِ إِهْوَاشًا وَإِدْعَاءًا

وافتك منه الزناتيون مصحف عثمان ، وهو المصحف الذي كان الخلفاء الموحدون يضعونه في مقدمة موكبهم . وتذكر بعض المصادر (237) أن الزناتين ، وقد أصبحوا حلفاء لأبي زكريا ، سلموه إليه باعتباره أولى به من الخليفة الموحي . قال ابن الأبار [البسيط] (238) :

58- إِنَّ الْإِمَامَ ابْنَ فَارُوقِ الْهَدَى عُمَرِ أُولَى بِمُصْحَفِ ذِي التُّورَيْنِ عُثْمَانًا (239)

وهكذا استطاع أبو زكريا بأحلافه من بني عبد الواد في المغرب الأوسط وبني مرين في المغرب الأقصى ، أن يتحد من غلواء الموحيين في مرحلة أولى وأن يقضي على آخر أمل لهم في استرجاع مجدهم . وفي نظر الشاعر انتصار هؤلاء على الموحيين

(234) د/ص 8 — 307 .

(235) د/ص 309 .

(236) د/ص 309 .

(237) د/ص 309 .

(238) د/ص 309 .

(239) ذكر المقرئ في التفح : 605/1 أن هذا المصحف كان موجودا في مقدمة موكب الخليفة الموحي الواصل سنة 1267/666 .

هو نصر من الله تأتي بطاعة أبي زكريا يحيى الحفصي [البسيط] (240) :

- 45- تُخْرِمُوا (241) بَابِنَ عَبْدِ الْحَقِّ (242) وَاصْطَلِمُوا وَقَبَلْهُمَا اسْتَبِيحُوا بِأَبْنِ زَيْنًا (243)
 46- أَعَاجِمُ أَلْسِنًا لَكِنْ مَنَاسِبُهُمْ تَنَمَّى إِلَى الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ قَحْطَانًا
 47- مُتُونُ خَيْلِهِمْ أَوْطَانُهُمْ وَكَفَى عِزًّا بِشَاوِيِ مُتُونِ الْخَيْلِ أَوْطَانًا
 48- نَادَوْا بِطَاعَةِ يَحْيَى فَاسْتَجَابَ لَهُمْ نَصَرَ مِنَ اللَّهِ إِسْرَارًا وَإِعْلَانًا

وبدأت الوفود تتهافت على عاصمة الحفصيين تدعو العاهل الحفصي لاستكمال المرحلة الأخيرة من فتوحاته ، وهي الاستيلاء على عاصمة الموحدين مراكش والقضاء على دولتهم قضاء مبرما . قال ابن الأثير [الطويل] (244) .

- 1- هَنِيئًا لَوْفِدِ الْعَرَبِ مِنْ صَفْوَةِ الْعَرَبِ قُدُومٌ عَلَى الرُّغْبِ الْمُجِيرِ مِنَ الرُّغْبِ
 3- أَلَمْ تَرَهُمْ أَقْضَوْا إِلَى فَائِضِ النَّدَى فَلَقَاهُمْ بِالنَّائِلِ الرَّخْبِ وَالرُّخْبِ
 4- وَقَلَدَهُمْ لَمَّا كَسَاهُمْ فَلَا تَرَى سِوَى الْعَضْبِ جَلَاءَ النُّضَارِ عَلَى الْعَضْبِ

10 — الدولة الحفصية :

لقد وصل ابن الأثير إلى إفريقية في بداية عهد الدولة الحفصية . ولا شك أن هذه الدولة في هذه الفترة أي في الربع الثاني من القرن 13/7 في حاجة أكيدة إلى من يشد أزرها سواء أكان ذلك بالسيف أم بالقلم . وسوف لن تجد خيرا من شاعر قدير كابن الأثير لينافح عن مبادئها ويمجد أمراءها وينوّه بشأنها ويحقر من أعدائها لتثبيت أسسها وتدعيم أركانها . ولهذا السبب فسح الأمير أبو زكريا لشاعر بلنسية المجال للمجيء والاستقرار بتونس حاضرة الدولة بعد ضياع وطنه ومسقط رأسه بالأندلس .

ونظرا إلى الظروف التي كانت تمرّ بها العدو الإفريقية بعد انهيار صرح الأمباطورية الموحدية كانت الدعوة الحفصية في حاجة ماسة إلى تبرير شرعيتها في وراثة الدولة

(240) د/ص 308

(241) أي الموحدون .

(242) ابن عبد الحق : بنو مرين .

(243) بنو زيان : بنو عبد الواد .

(244) د/ص 83 .

الموحّدية . وقد فهم ابن الأبار ما تحتاجه هذه الدولة الفتية من تزيير ، فرأى أن بني حفص هم أحقّ بوراثه دعوة المهدي بن تومرت ودولة عبد المؤمن . فهذه العائلة لها مجد طريف وتليد ، فهي تنتمي في نسبها إلى عمر بن الخطاب ونعم النسب والأصل ، قال الشاعر [الكامل] (245) :

18- هِيَ دَوْلَةٌ عُمَرِيَّةٌ سَيَّرَا خَضَعَتْ لِعِزَّةِ أَمْرِهَا الدُّوَلُ

وهي لم ترث النسب والأصل من عمر بن الخطاب بل ورثت أيضا أشهر خصلة عرف بها الخليفة الثاني وهي الاستقامة والعدل وتطبيق أحكام الشريعة السمحاء . قال ابن الأبار [الطويل] (246) :

33- هَيْنَا لَأَمْرُ اللَّهِ أَنْ شُدَّ أَرْزُهُ بِآلِ أَبِي حَفْصٍ إِلَى النَّهْيِ وَالْأَمْرِ

38- وَمَاهِي إِلَّا دَوْلَةٌ عُمَرِيَّةٌ يَدُومُ بِهَا الْإِقْبَالُ مُنْفَسِحَ الْعُمَرِ

وهذا المجد الأثيل لم ينقطع بل استمر إلى أن تجسّم في شخص جدّ الحفصيين وهو أبو حفص عمر أحد أصحاب المهدي بن تومرت الذين قامت الدولة الموحّدية على أكتافهم . وهكذا جمعت هذه العائلة بين نقاوة الدّم العربي قديما ، وخلاصة مآثرهم حديثا. قال ابن الأبار (247) [المتدارك] (248) :

68- لَا ضَيْرَ بِهِمْ وَتَمَضَّرُهُ يَنْمَى صُعْدًا وَتَمَغْدُدُهُ (249)

70- عَدَوِيَّ (250) الْبَيْتِ مُطَنِّبُهُ فَوَقَ الْأُمْلَاكِ مُمْدَدُهُ

71- وَرِثَ الْعُمَرَيْنِ (251) سَنَاءَهُمَا يَعْتَدُّ بِهِ وَيَعْدُدُهُ

72- عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ أَخْرَزَهُ فَذُ التَّوْحِيدِ وَأَوْحَدُهُ

(245) د/ص 241 .

(246) د/ص 192 .

(247) مطلع القصيدة ص 154 من الديوان :

1- مَرْقُومُ الْحَدِّ مُورَدُهُ يَكْسُونِي السُّقَمَ مُجَرَّدُهُ

(248) د/ص 158 .

(249) أي ينتسب الممدوح وهو أبو زكريّا إلى مُضَرٍّ وَمَعْدٍ .

(250) نَسَبُهُ إِلَى عَدِيٍّ جَدُّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (انظر كذلك : الديوان ص 160 بيت 25).

(251) الْعُمَرَيْنِ : عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَأَبُو حَفْصٍ عُمَرَ الْهَتَاتِي .

وهذه الخصال ورثها الوالد عن الجد وأورثها الابن. قال الشاعر [المتدارك] (252) :

- 4 — عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ أَخْرَزَهَا يَخْيِي لِلتَّجْلِ ابْنٌ وَأَبٌ
5 — فِي جُمُجْمَةٍ عَلَيَا وَرَحَى عَمُرُ الْفَارُوقِ لَهَا قَطْبُ

ومن الناحية المذهبية العقائدية تمسكت هذه العائلة بدعوة المهدي بن تومرت ولم تتنكر لها كما فعل المأمون الموحدي . قال الشاعر [الكامل] (253) :

- 35 — وَإِيَالَهُ مَهْدِيَّةٌ عُمَرِيَّةٌ أَوْدَى يَدْعَوْنَهَا الضَّلَالُ وَطَاحَا

وبهذه الخصال وبهذا النسب الرفيع شادت هذه العائلة ملكا يفوق ما شادته عائلات أخرى، لها في التاريخ ذكر وصيت ، وتمكنت من تطهير البلاد من أصحاب الفتن والشغب . قال الشاعر [الكامل] (254) :

- 32 — أَيْنِي أَبِي خَفَصِرْ ذَهَبْتُمْ بِالْعُلَى وَأَفْذَتِ الدُّنْيَا بِكُمْ إِفْذَاذَا
33 — وَنَعَاصَمْتُ عِيدَانَكُمْ أَنْ تُعْتَزَى فِي آلِ بَرْمَكٍ أَوْ بِنِي يَزْدَاذَا
34 — شِدْتُكُمْ بِإِفْرِيقِيَّةٍ مُلْكَا عَفَا لَمَّا اصْطَفَيْتُكُمْ مَلْجَأُ وَمَعَاذَا
35 — وَطَرَدْتُكُمْ عَنْ جَانِبَيْهَا كُلِّ ذِي دَعَاى تَهَادَى بَيْنَهَا وَتَهَادَى (255)

وهكذا صفا الجو لدولتهم وساد الأمن والرخاء وتطلعت النفوس لتحقيق ما تطمح إليه وترجو بل وتتمنى . قال ابن الأبار [الرملة] (256) :

- 25 — إِنَّمَا آلُ أَبِي خَفَصِرْ هُدَى يَكْشِفُ الْعَيَّ وَيَجْلُو السَّرَا
26 — قَدْ أَقَاءَ بِهِمْ ظِلُّ الْمُنَى وَصَفَا مِنْ شَرِبَهَا مَا كَدَرَا
27 — تَخِذْ النَّاسُ عِلَاهُمْ سُنَّةَا وَلَا الدَّهْرُ خِلَاهُمْ سُورَا

(252) د/ص 92 .

(253) د/ص 115 .

(254) د/ص 183—184 .

(255) المقصود ابن غانية .

(256) د/ص 186 .

وَاتَّخَذَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ شِعَارًا لَهَا الرَّاْيَةَ الحَمْرَاءَ رَمَزًا لِدِمَائِهَا وَأَعْدَائِهَا وَمَنَاوِيْهَا . قَالَ الشَّاعِرُ [الطَّوِيلُ] (257) :

45 — بِرَاْيَتِهِ الْحَمْرَاءُ يَصْطَلِمُ الْعَدَى لِمَاْيَتِهِ الْبَيْضَاءُ غَضْبَانَ مُقْتَصًّا

11 — العائِلة الحفصِيَّة :

لا نجد في ديوان ابن الأَبَار ذكرًا — من الأُسرة الحفصِيَّة الكُبْرَى — إلَّا لعائِلة أبي زكرياء يحيى الأوَّل مؤسِّس الدَّولة الحفصِيَّة ، فقد تَرَدَّدَ ذكر هذا الأمير وذكر ابنيه أبي يحيى زكريا وأبي عبد الله محمد .

المولى أبو زكرياء الحفصي

أ — ألقابه :

عندما تمكَّن أبو زكرياء من القضاء على ثورة ابن غانية واستقلَّ بإفريقيَّة متحدِيًا بذلك السِّلْطَةَ الموحَّدِيَّة بمراكش ، رأى ألاَّ يحيط نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة . وهذا دليل على حِصَافَةِ رأيه وبعد نظره فاكْتَفَى بِاسْمِ (أمير) ورفض أن يخاطب بأمر المؤمنين (258) في سنة 7/634—1236 . وفي ديوان ابن الأَبَار نجد كلمة (خليفة) تتردَّد بكثرة نعتًا لأبي زكريا من ذلك قول الشَّاعِر [الكامل] (259) :

31 — وَخَلِيفَةٌ فِي الْأَرْضِ لَكِنْ يَتَّيُّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ ، يُمَدُّ فِي تَضْيِيْهِ

كما نجد لقب (المرتضى) كما جاء في قول الشَّاعِر [الكامل] (260) :

24 — فَسَمًا يَبْحَثِي الْمُرْتَضَى لَقَدْ انْتَضَى مِنْ بَأْسِيهِ مِثْلَ الصَّفَّاحِ صِفَاحًا

(257) د/ص 342 .

(258) الأدلة البيِّنة ، ص 48 .

(259) د/ص 79 .

(260) د/ص 117 .

كما يدعو به بأمر المؤمنين بعد فتح تلمسان ، وتهاطل بيعة مدن العدوتين الإفريقية والأندلسية عليه . قال [السريع] (261) :

2- أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي دَوَّلْتَهُ يَمَنٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

كما نجد ابن الأبار يسمي أبا زكرياء (ملك المغرب) تفاؤلا وتبشيرا بامتلاكه لكامل أرض المغرب . قال ابن الأبار بمناسبة حفلة سيرك شاهدها في ملعب تونس في أواخر شعبان سنة 1238/636 بعد أن وصف الحيوانات المفترسة [المقارب] (262) :

34- غَرَائِبُ شَتَّى بَهْرَنَ الْعُقُولَ جُمِعْنَ لَدَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ
36- إِمَامٌ هَدَى نُورُهُ ثَاقِبٌ وَزُهِرُ الْكَوَاكِبِ لَمْ تَثْقُبِ
37- عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الرُّضَى ثَقِيلُهُ ، وَعَلَى مَشْعَبِ
38- يُهَيِّبُ لِدَعْوَتِهِ بِالْأَنَامِ قَيْرُضِي الْإِلَهَ وَيُرْضِي النَّبِيَّ

ب - عائلته :

— أبوه وجدّه :

لئن كان الفضل في قيام الدولة الحفصية يرجع بالدرجة الأولى إلى الأمير أبي زكرياء ، فقد مهد له الأرضية الصالحة لذلك أبوه أبو محمد عبد الواحد ، وجدّه أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب المهدي . ولهذا نجد ابن الأبار كثيرا ما نوه بشأنهما أثناء تمجيده بصفة عامة للعائلة الحفصية ، وبصفة خاصة عند مدحه لأبي زكرياء . قال ابن الأبار يذكر ثلاثتهم [البيسط] (263) :

21- وَإِنَّ يَحْيَى بْنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي حَفْصٍ لَأَنُورَ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَسَبًا
22- ثَلَاثَةٌ هُمْ نُجُومُ الْأَرْضِ قَدْ عَشَرُوا وَعَاشَرُوا فِي السَّمَاءِ السَّبْعَةِ الشُّهُبَا

(261) د/ص 300 .

(262) د/ص 101 .

(263) د/ص 74 .

ويرى ابن الأبار أن السلطنة التي ورثها أبو زكرياء عن أبيه هي حق من حقوقه وله أن يورثها أبناءه بعده حقاً شرعياً لا مرأى فيه . قال [المتدارك] (264) :

- 4- عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ أَخْرَزَهَا يَخْيَى لِلنَّجِيلِ ، ابْنٌ وَأَبٌ
5- فِي جُمُجْمَةٍ (265) عَلِيًّا وَرَحَى عُمَرُ الْفَارُوقُ لَهَا قُطْبٌ
- أبناؤه :

وأبناء المولى أبي زكرياء جديرون بهذا الإرث وهذا التوزيع فهم كالتجوم مع البدر ، نوراً ورفعة . قال الشاعر [البسيط] (266) :

- 66- يَلْتَأَخُ بَذْرًا أَبُو يَخْيَى الْأَمِيرُ وَهُمْ لِزَاوَاهُ كَالْتَّجُومِ الزُّهَرِ أَمْثَالُ
67- قَدْ رُبُّوا فِي نِظَامِ الْمُلْكِ أَرْبَعَةً كَمَا يُرْتَّبُ نَظْمَ الْعَقْدِ لَأَلُ
ولا يكتفي ابن الأبار بالتعميم بل نراه يذكرهم بأسمائهم واحداً واحداً . قال [الطويل] (267) :

- 66- وَأَطْلَعَ مِنْ أَبْنَائِهِ زُهَرَ أَنْجُمِ يُنَافِسُ فِي أَنْوَارِهَا الْمَغْرِبُ الشَّرْقَا
67- ثَلَا زَكْرِيَاءَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ وَبَرَزَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَهُمَا سَبْقَا
68- وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ أَخِيرًا بِأَوَّلِ مِنَ الْفَضْلِ يَسْتَوْلِي عَلَى شَأْوِهِمْ لَحَقَا
ولا يترك الشاعر فرصة تمرّ دون تهنئة الأمير بوليدته الخامس عثمان الذي تزامن مولده مع عيد الأضحى . قال [مخلع البسيط] (268) :

- 38- اللَّهُ مَنْ تَجَلَّاهُ الْمُفْجَدَى نَجْمٌ يَزِينُ الزَّمَانَ حُسْنًا
40- سَمَّاهُ عُثْمَانَ إِذْ تَمَّاهُ يَسْلُبُ نَفْعَ السَّمَاحِ مَعْنَى

(264) د/ص 92 .

(265) الجمجمة : رؤساء القوم وساداتهم .

(266) د/ص 248 .

(267) د/ص 385 .

(268) د/ص 303-4 .

- 42- جَادَ بِهِ خَامِسُ الدَّرَارِي دَهْرَ لَوَى بَرْهَةً وَضُنَّا
44- مَوْلَايَ هُنْفَتْ عِيدَ أَضْحَى أَضْحَى بِمِلَادِهِ يُهْنَا

ج - حياته الخاصة :

إن ما تورده كتب التاريخ من نقشف أبي زكرياء في مأكله وملبسه ومركوبه يمكن أن يكون من المبالغات التي وجب ترويجها في تلك الفترة لتدعيم أركان الدولة الجديدة ، حتى أنها كادت أن تجعل من أبي زكرياء صورة طبق الأصل لجده - كما زعموا - عمر بن الخطاب . والشعر قد يفتح لنا بعض الأبواب الموصدة فترى صاحب السلطة على حقيقته . فابن الأبار قد عاش مدة طالت أو قصرت - في رحاب بلاط أبي زكرياء فوصف في ديوانه بعض مجالس الأنس التي كانت تقام في منتزهات الحفصيين بأبي فهر في ضواحي عاصمتهم . وكان الأمير يستدعي من رجال دولته من يراه جديرا بهذه الجلسات الخاصة . قال ابن الأبار في مجلس أنس بأبي فهر عقدت فيه مأدبة في عهد أبي زكرياء [مجزوء الوافر] (269) :

- 51- وَيَوْمَ فِي (أَبِي فَهْرٍ) يُورُخُ فَخْرَهُ الْأَبْدُ
52- تُعْذَى الرُّوحُ وَالرَّيْحَا نَ مِنْهُ الرُّوحُ وَالْجَسَدُ
53- أَفَانِيْنٌ مِنَ النُّعْمَى إِذَا مَا أُصْدِرَتْ تَرْدُ
54- وَجَنَاتٌ مُزَخْرَفَةٌ يَشُوقُ حَمَامُهَا الْقَرْدُ

ومن هذه الجزئيات التي يهتم بها شعراء البلاط مرض الأمير وشفاءه . فابن الأبار يذكر مرض أبي زكرياء وشفاءه في ثلاث قصائد مدحية : ترجح أنه قال الأولى منها وهو في تونس في فترة كانت علاقته بالأمير علاقة عادية . وقد اغتنم مناسبة شفاء الأمير ويوم عيد أضحى ليهنته بالمناسبتين . قال [الكامل] (270) :

- 38- إِنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ بَهْمًا قَبْلَهُ فَلَشَدَّ مَا كُسَيْتَ بِهِ إِفْصَاحَا
39- أَوْ لَحْنٌ مَرَضَى لَا شِفَاءَ لِسُقْمِهَا فَالآنَ لَمَّا صَحَّ رُحْنٌ صِحَاحَا
40- اللَّهُ أَضْحَى زَائِهِ يَهَائِهِ كَالشَّمْسِ زَانَ شُعَاغَهَا الْإِصْبَاحَا

(269) د/ص 146 .

(270) د ص 118 .

أما الثانية والثالثة فيبدو أنه قالهما في آخر عهد أبي زكرياء وهو مغضوب عليه
ببجاية . فقد ذكر في الأولى الأمير محمدا وناداه بولّي العهد (271) ، فقال [الكامل]
(272) :

12 — بِشِفَائِكَ الْمَيِّتُونَ مَطْلَعُهُ نَكَصَتْ عَلَى أَغْصَانِهَا الْعِلَالُ
وطلب العفو في الثانية مشيرا إلى بعده عن الممدوح (273) . فقال متوفا بشفاء
أبي زكرياء [الوافر] (274) :

1 — تُفْسُوسُ الْعَالَمِينَ لَكَ الْفِدَاءُ فَكَيْفَ أَلَمْ يُؤْلِمَكَ اشْتِكَاءُ
8 — فَإِنْ غُوفِيَتْ غُوفِيَتِ الْبَرَائِيَا وَقَدْ نَاجَى مَعَالِمَهَا الْعَفَاءُ
11 — نَضًا عَنْكَ الضَّنَى بُرءٌ سَعِيدٌ كَمَا رَوَتْ صَدَى الْأَرْضِ السَّمَاءُ

د — وفاته :

ويبدو أنّ هذا المرض الأخير كان سببه الحزن الشديد الذي ألمّ بأبي زكرياء بعد
وفاة ولّي عهده وابنه أبي يحيى . ولم يلبث الخليفة أن توفي ببونة (275) بعد أن ظنّ
الناس أنّه شفي من مرضه أو كاد . فقال ابن الأثير [الكامل] (276) :

18 — فِي بُؤْسَةٍ بَائَتْ حَيَاةَ الْمُرْتَضَى يَحْيَى وَقِيدَ إِلَى الثَّرَى بِرِمَامِ
19 — وَهُنَاكَ خُطَّ ضَرْيُحُهُ سَقِيَالُهُ هَلَاً (277) بِأَفْقَدَةٍ عَلَيْهِ حَيَامِ

(271) تولى العهد بعد وفاة أخيه أبي يحيى في سنة 7—1248/646 (أنظر أيضا د/ص 242 بيت
39 و40).

(272) د/ص 241 .

(273) د/ص 51 بيت 18 .

(274) د/ص 50 .

(275) حسب الأدلة البيّنة ص 51 توفي ليلة الجمعة 29 جمادى II 9/647 أكتوبر 1249، في
د/ص 262 : 22 جمادى II 1249/647 .

(276) د/ص 263 .

(277) هلّ المطر هلا : أمطر بشدة .

أبو يحيى زكرياء بن أبي زكرياء يحيى الحفصي

أبو يحيى زكرياء هذا هو الابن الأكبر لمؤسس الدولة الحفصية أبي زكرياء يحيى الحفصي . وقد اختاره والده لحكم مدينة بجاية — أو الناصرية (278) كما يحلو لابن الأتبار تسميتها — في سنة 1237/633 بعد رجوعه من حملته الأولى الموفقة على المغرب الأوسط . ولا نجد صدى لهذا الحدث الكبير في حياة هذا الأمير في شعر ابن الأتبار ، لسبب بسيط هو أنّ الشاعر في هذه السنة مازال في وطنه ومسقط رأسه بلنسية .

وعلى عكس ذلك نجد في ديوان ابن الأتبار اهتماما بهذا الأمير في ثلاث مناسبات :

— الأولى : بمناسبة تعيينه ولياً للعهد يوم الخميس 2 رجب 1240/638 . وقد نوّه الشاعر بهذا الحدث خمس مرّات في القصائد رقم 58 ص 133 ورقم 84 ص 181 ورقم 85 ص 185 ورقم 86 ص 190 ورقم 5 من الملحق ص 440 .

إنّ كفاءة الأمير وقدرته وحسن سلوكه وجيل أعماله هو الذي جعل أباه يعينه لولاية العهد . قال ابن الأتبار [الطويل] (279) :

30 — أَمِيرًا حَبَا مِنْهُ أَمِيرًا يَمْلِكُهُ فَأَذْرَكَ ثَارَ الدِّينِ فِي الْبَغْيِ وَالْكَفْرِ
31 — وَقَلَّدَهُ الْعَهْدَ الْإِمَامِيَّ رَاضِيًا بِسِيرَتِهِ الْحُسْنَى وَأَثَارِهِ الْغُرَّ

والدولة في حاجة إلى مثل هذه الكفاءة لردع من يناوئها من الأعداء . قال الشاعر [الكامل] (280) :

29 — أَمْضَى وَأَنْفَذَ مِنْ وَلَايَةِ عَهْدِهِ مَا شَرَّفَ الْإِمْضَاءَ وَالْإِنْفَازَ
30 — وَنَضًا لِنَصْرِ الْحَقِّ مِنْهُ مُهَنْدًا يَسْقِي الْعِدَى صِرْفَ الرَّدَى هَذَاذَا

(278) نسبة إلى مؤسسها التاصر بن حمّاد الصنهاجي .

(279) د/ص 192 .

(280) د/ص 183 .

وهي بيعة إجماع لم يتخلف عنها أحد لما يَتَمَتَّع به الأمير أبو يحيى من خصال .
قال ابن الأثير [الرجز] (281) :

- 6- وَلَا لَهَا فِي الْأَرْضِ مِنْ مُعَايِدٍ يَتَعَةُ رِضْوَانٍ وَمَهْذِي خَالِدٍ
7- مَا يَتَنُّ مَعَهُودٌ لَهُ وَعَاهِدٍ مِيثَاقُهَا حُلٌّ غَرَى الْمَكَائِدِ
8- وَغَفْدُهَا جَلٌّ عَنِ الْعَقَائِدِ كَانَتْ لَهَا السُّعُودُ بِالْمَرَايِدِ
20- إِنَّ الْعُلَى مَجْمُوعَةٌ فِي وَاحِدٍ مِنْ زَكَرِيَاءَ الْأَمِيرِ الْمَاجِدِ

وهي كذلك بيعة رضوان وبركة على المسلمين فلا غزو أن يشيد بها الشادي وينوه بها المنوه . قال الشاعر [الطويل] (282) :

- 1- أَشَادَ بِهَا الدَّاعِي الْمُهِيبُ إِلَى الرُّشْدِ فَهَبْ لَهَا أَهْلُ السَّعَادَةِ بِالْخُلْدِ
2- وَلَا يَةُ عَهْدٍ أَنْجَزَ الْحَقُّ وَغَدُهُ بِتَقْلِيدِهَا مِنْ أَهْلِهِ الصَّادِقِ الْوَعْدِ
3- وَيَتَعَةُ رِضْوَانٍ تَبْلُجُ صَبْحُهَا عَنِ الْقَمَرِ الرُّضَّاحِ فِي أَفْقِ الْمَجْدِ
12- عَلَى زَكَرِيَاءَ بْنِ يَحْيَى التَّقَى الرُّضَى كَمَا التَّقَتْ الْأَنْدَاءُ صَبْحًا عَلَى وَرْدِ

وهي بيعة لئن جَسَمَت استمرارية الدولة في آل أبي حفص ، فهي تدعّم سنة عريقة يتمّ بموجبها انتقال السّلطة من الأب إلى الابن . قال ابن الأثير [الرملي] (283) :

- 21- حَسْبُهُ (284) ، مَعْلُوءَةٌ ، خِذْمَتُهُ لِلْأَمِيرِ بْنِ إِمَامِ الْأُمَرَا
22- زَكَرِيَاءَ بْنِ يَحْيَى الْمُزْتَضَى ابْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عُمَرَ
23- نَسَبَ أَبْهَرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى لَيْسَ مَاءُ الْمُزْنِ مِنْهُ أَظْهَرَ
24- وَأَبْ يَخْلُقُهُ ابْنٌ فِي الْعُلَى كَالْجَنَى يَغْقُبُ بَعْدَ الزَّهَرَا

— الثانية : بمناسبة زيارته لتونس . وقد أشار الشاعر إلى هذا الحدث في خمس قصائد : وهي القصيدة رقم 85 ص 185 ورقم 86 ص 190 ورقم 87 ص 193 ورقم 116 ص 225 ورقم 202 ص 425 .

(281) د/ص 4-133 .

(282) د/ص 1-440 .

(283) د/ص 186 .

(284) الضمير يعود على الشاعر .

ويبدو أنَّ حاضرة تونس استعدت لقبول أمير بجاية وولي العهد ، فبدت في أحلى زينة وكأنها في يوم عيد . ولهذا تساءل الشاعر في مطلع قصيدته رقم 86 ص 190 قائلا [الطويل] (285) :

1 - أُمْبِتْسِمُ الْأَضْحَى وَمَطْلَعُ الْفِطْرِ أَمِ الدَّوْلَةُ الْغُرَاءُ وَضَاحَةُ الْبِشْرِ (286)
ودخوله إلى حاضرة الدولة يشبه الأبطال العائدين من المعركة مكللين بأزاهير الغار .
قال الشاعر (287) :

28 - تَجَلَّى بِنَاءُ الدُّنْيَا جَلَالاً وَأَكْنَفَ السُّهُولَةِ وَالْوُغُورِ
29 - فَكَمْ مِنْ أَنْفُسٍ لِهَذَاهِ مَيَّلَ وَكَمْ مِنْ أَغْنَيْنِ لِسَنَاهُ صُورِ
30 - وَجَاسَتْ مِنْ حَوَالِيهِ جُيُوشٌ تَجُلُّ بِحَارُهُنَّ عَنِ الْغُيُورِ
31 - وَرَايَاتٌ كَأَفْئِدَةِ الْأَعَادِي إِذَا خَفَقَتْ وَأَجْنَحَةِ الطُّيُورِ
ويرى ابن الأثير - تأكيداً على أواصر المحبة التي تربط الابن بأبيه - أن هذه الزيارة هي زيارة الشبل لعرين الأسد . قال [الطويل] (288) :

5 - أَلَا هُوَ شِبْلُ الْبَاسِ زَارُ هَزْبِهِ فَقَرَّ قَرَارُ النَّاسِ مِنْهُ عَلَى الزَّارِ
15 - تَنَاصَرَتِ الْبُشْرَى يَوْمَ قُدُومِهِ عَلَى الْحَضَرَةِ الْعَلْيَاءِ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ

ويؤكد الشاعر على الهجة التي عمرت القلوب بزيارة الأمير أبي يحيى زكرياء إلى تونس ، فوالده قد قرت عينه برؤية نجله ، والعاصمة بأكملها عمها السرور بحلول ركب ولي العهد بها . قال [الوافر] (289) :

19 - هَلَا لَاحِلٌ مَنْزِلَةُ الثَّرِيَّا وَقَبْلَ رَاحَةِ الْبَذْرِ الْمُزِيرِ
20 - وَشِبْلًا يَهْضُرُ الْأَسَادَ بَاسًا أَلَمْ يَغَابَةِ الْأَسَدِ الْهَاصُورِ

(285) د/ص 190 .

(286) تعليق المحقق يدل على سوء فهم للبيت .

(287) د/ص 194 .

(288) د/ص 1-190 .

(289) د/ص 194 .

- 23 - أَمِيرُ الدَّهْرِ يَوْمٌ فِيهِ وَافَى أَبُو يَحْيَى الْأَمِيرُ ابْنَ الْأَمِيرِ
24 - لِدَارِ الْمُلْكِ صَارَ وَسَارَ يُنْتَا فَأَسْعَدَ بِالْمَصِيرِ وَالْمَصِيرِ
27 - وَأَكْرَمَ زَائِرٍ تَجَلَّ أَقَرَّتْ غُلَاهُ غَيْنَ نَاجِلِهِ الْمَزُورِ

إن الزائر هو رجل الدولة في المستقبل ، ولقد تشبّع بكلّ خصال رجالها من الجدّ الأول للعائلة وهو عمر بن الخطاب ، إلى جدّه القريب الشيخ أبي حفص ، إلى أبيه أبي زكرياء يحيى مؤسس الدولة . وقد قام هذا الأخير بتدريج وصيّة له يرى الشاعر أنها مستقاة من مبادئ المهدي بن تومرت (290) فقال [الوافر] (291) :

- 1 - وَلِيّ الْعَهْدِ أَمَّ عَهْدُ الْوَلِيِّ أَكْبَى يُرْوِي الْبَسِيطَةَ كَالْأَنْبِي
13 - إِلَى الْفَارُوقِ تَنْبِيهِ السَّجَايَا سَمِيَّ أَيُّهُ يَأْكَ مِنْ سَمِيَّ
14 - وَحَسْبُكَ مَا هَدَاهُ مِنَ الْوَصَايَا عَنْ الْمَهْدِيِّ مِنْ آلِ الْوَصِيِّ
17 - وَلَمْ يَكْ مِنْ أَبُو حَفْصٍ أَبُوهُ لِيُلْقَى غَيْرَ شَيْخَانِ أَبِي

— الثالثة : بمناسبة رجوعه من الحضرة تونس إلى بجاية ، وقد رأى الشاعر أنّ الأمير ذهب هلالاً مضيقاً فعاد بدراً كاملاً ، عليه ملامح الشباب جمالاً وبهاء ، وله عقل الكهول حكمة وسداداً . قال [الخفيف] (292) :

- 1 - آبَ بَذْرًا وَقَدْ أَلَمَّ هِلَالًا مَلِكٌ زَيْدٌ لِلْكَمَالِ كَمَالًا
2 - إِنْ يَكُنْ يَمْلَأُ الْعُيُونُ شَبَابًا فَلَقَدْ يَنْهَرُ الْحُلُومُ اخْتِهَالًا

أبو عبد الله محمد المستنصر

جاء ذكر أبي عبد الله محمد المستنصر الابن الثاني لأبي زكرياء في 6 مناسبات في القصيدة رقم 42 ص 103 ورقم 70 ص 167 ورقم 69 ص 166 ورقم 68 ص 162 ورقم 120 ص 262 ورقم 22 من الملحق ص 541 ورقم 132 ص 290 .

(290) من مبادئ السياسة الحفصية التأكيد على تمسكها بالمذهب الموحدي وبمبادئ المهدي ، وذلك ردّاً على ما فعله المأمون الموحدي في مراكش من تنكّر لمذهب الدولة الرسمي .

(291) د/ ص 425-6 .

(292) د/ ص 254 .

الأولى : قالها الشاعر لما توفي أخوه الأمير أبو يحيى زكرياء حاكم بجاية وولي العهد ، فقد اختاره أبوه أبو زكرياء يحيى أولاً ليعوض أخاه على رأس ولاية بجاية المدينة الثانية في المملكة الحفصية وكان ذلك سنة 1248/646 . فقال ابن الأبار منوها بهذا الاختيار [الكامل] (293) :

16 — هَذِي بِجَايَةٍ قَدْ سَدَّدْتُ ثُغُورَهَا بِمُبَارَكٍ يُمِضِي الْأُمُورَ مُسَدِّدًا

ويغتنم الشاعر هذه الفرصة ليطالب من المولى أبي زكرياء تكريم أبي عبد الله محمد بولاية العهد ، وهو ما يرغب فيه أبو زكرياء نفسه . قال (294) :

22 — وَاعْقِدْ لِمَوْلَايَ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ عَهْدًا بِهِ تُرْضِي النَّبِيَّ مُحَمَّدًا

20 — هُوَ زَانُ إِخْوَتِهِ وَهُمْ زَانُوا الْهُدَى فَكَأَنَّهُ بَنِيْتُ الْقَصِيدِ مُجَوِّدًا

21 — وَسَطَى قِلَادَتِهِمْ وَزَهْرَةُ رَوْضِهِمْ وَأَحَقُّ مَنْ حَبِيَّ الْجَسِيمِ وَقَلِّدًا (295)

— **الثانية :** قبلت بمناسبة تعيين هذا الأمير في نفس السنة التي توفي فيها أخوه يحيى ، ولياً للعهد . فتوه ابن الأبار بهذا الحدث ورأى أنَّ أبا زكرياء أحسن الاختيار عندما عين ابنه محمدًا لهذا المنصب الخطير . فقال [الطويل] (296) :

1 — تَحَيَّرْتُ مُخْتَارَ الْخَلِيفَةِ لِلْعَهْدِ فَرَوَيْتُ أُمَحَالَ الْبَسِيطَةِ كَالْعَهْدِ (297)

6 — وَفِي رَجَبٍ مَا هُنْتُوا بِإِعْقَادِهَا لِيَهْنَتْهَا فَرْدُ الشُّهُورِ إِلَى فَرْدٍ

29 — هَنِيئًا لِيَحْيَى أَنَّهُ بِمُحَمَّدٍ تَوَخَّى أَوَاخِيَّ الْخِلَافَةِ بِالشَّدِّ

31 — إِمَامٌ أَرَأَا مِنْ إِمَامَةٍ تَجْلِيهِ مَنِيَّةَ مُسْتَعَصِرٍ وَمَنِيَّةَ مُسْتَعْدٍ

وفي الديوان ذكر المحقق — اعتمادا على المصادر التاريخية — تاريخين لولاية العهد هما رجب 646 (د/ص 162) و 12 ذي الحجة 646 (د/ص 166) . وفي إحدى

(293) د/ص 168 .

(294) د/ص 168 .

(295) هذه القصيدة أصاب التلف بعض أبياتها كما أشار محقق الديوان ، ويغلب على الظن أنَّ ما بقي منها من أبيات وصل إلينا مشوشًا فحاولنا إعادة ترتيب الأبيات المستشهد بها .

(296) د/ص 162 و 164 .

(297) العهد : مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله .

القصائد نجد أنها تمت في أول عام جديد أي في شهر محرم ولن يكون هذا العام إلا سنة 1249/647 . قال ابن الأثير [الرجز] (298) :

11 - يَا بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ أَوْ يَا اخْتَهَا هُنْتُ فَخُرًا ، عُمْرُهُ لَنْ يَنْقُدا

12 - أَهْدَى بِكَ الْعَامَ الْجَدِيدُ أَمْلًا بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْهُدَى مُجَدِّدًا

وهو بذلك لم يترك المسلمين نهب الضياع بعده ، فضمن لهم بتعيين ولي عهد جديد الاستمرارية في كنف الأمن والطمأنينة . قال [رجز] (299) :

1 - إِنَّ إِمَامَ الْحَقِّ لَا يَسْأَمُ أَنْ يُصْدِرَ عَنْ حَقِيقَةٍ وَيُورِدَا

2 - قَلْدَهَا عَنِ اجْتِهَادِ أَهْلِهَا يَا مَنْ رَأَى مُجْتَهِدًا مُقْلِدًا

4 - خِلَافَةً لَوْ غَيْرُ يَحْيَى الْمُرْتَضَى بَعِيْهَ رَامَ قِيَامًا قَعْدًا

6 - وَلَمْ يَدْعُ أُمَّةَ أَحْمَدٍ سُدَى حَيْثُ ارْتَضَى لِعَهْدِهَا مُحَمَّدًا

وولي العهد المعين يستحق هذا المنصب لما حياه الله من خصال موروثه ومكتسبة [الطويل] (300) :

41 - خِلَافَةَ يَحْيَى زَانَ عَهْدُ مُحَمَّدٍ وَلَا شَكَّ أَنَّ الرُّنْدَ يَزْدَانُ بِالْقَلْبِ (301)

42 - هُمَا الْقَمَرَانِ التَّيْرَانِ وَإِنَّمَا مَذَارُهُمَا لِلْمَغْلُوتِ عَلَى قُطْبِ

43 - أَمَا وَلِيَّ الْعَهْدِ أَزْكَى إِلِيَّةَ لَقَدْ أَحْرَزَ الْعَلِيَا بِالْإِزْثِ وَالْكَسْبِ

— الثالثة : قالها الشاعر بمناسبة إعدار بعض أبنائه . وكان ذلك ما بين نهاية 1249/646 وبداية 1249/647 عندما كان أبو عبد الله وليا لعهد أبيه . وهذا من باب الترجيح لا اليقين لأن الشاعر لا يذكر اسم الممدوح وإنما يكتفي بقوله (ولي

(298) د/ص 166 .

(299) د/ص 166 .

(300) د/ص 86 .

(301) القلب : السوار .

العهد) . وهذا يمكن أن ينطبق على أبي عبد الله ويمكن أن ينطبق على أبي يحيى أخيه الأكبر . قال الشاعر [البسيط] (302) :

- 18 — يَا شِدَّةَ الْيَأْسِ إِنْ يُسْتُ فَيْكَ فَقَدْ أَضْحَى رَجَاءَ وَلِيِّ الْعَهْدِ لِي فَرَجَا
30 — هَادٍ لِقَصْدِ أَبِيهِ الْمُرْتَضَى عَلَّمَا لِيَجْبِرَ مَا انْهَاضَ أَوْ إِصْلَاحَ مَا مَرَجَا
31 — اللَّهُ مَشْرُوعُ آثَارٍ تَقْبَلُهَا هُدَاهُ فَاعْتَدَّهَا أَهْلُ الْهُدَى حُجَجَا
32 — مُطَهَّرًا مِنْ بَيْنِهِ كُلِّ مَنْ طَهَّرَتْ أَغْرَاقُهُ ، وَتَرَقَّتْ فِي الْعُلَى دَرَجَا

— الرابعة : قالها في موت أبي زكرياء : يبدو أن المولى أبا زكرياء تأثر لوفاة ابنه أبي يحيى فمرض وتوفي بعد ابنه بأشهر قلائل بمدينة بونة في جمادى II 647/أكتوبر 1249 (303) . فاعتنم ابن الأبار هذه الفرصة ليتقرب إلى الحاكم الجديد . فقال راثيا [الكامل] (304) :

- 18 — فِي بُؤْسَةٍ بَائَتْ حَيَاةَ الْمُرْتَضَى يَخْيَى وَقَيْدَ إِلَى الثَّرَى بِزِمَامٍ وَمُهْنَتَا (305) :

- 49 — بِمُحَمَّدٍ وَعِدَتْ رَعَايَا أَحْمَدٍ الْأَثَرَالِ زَوَاهِرَ الْأَيَّامِ
51 — مَلِكٌ نَمَتْهُ فِي الْمُلُوكِ عِصَابَةٌ هِيَ مَفْخَرُ الْأَسْيَافِ وَالْأَقْلَامِ

— الخامسة : قيلت في سنة 1250/648 ، بمناسبة إيصال المستنصر الماء إلى مدينة تونس من زغوان بواسطة الحنايا الرومانية التي أعيد ترميمها وتصليحها ، كما أوصل الماء إلى جامع الزيتونة . وقد كتب ابن الأبار رسالة طويلة (306) للتبويه بهذا

(302) د/ص 5—104 .

(303) اختلفت المصادر في تحديد اليوم . في الديوان ص 162 : 22 جمادى II ، وفي الأداة البيئية التورانية ص 51 : 29 جمادى الثانية وفي تاريخ ابن أبي الضياف ج 1 ، ص 160 : ليلة الجمعة 28 جمادى II .

(304) د/ص 263 .

(305) د/ص 265 .

(306) انظر الرسالة في أزهار الرياض للمقرئ: 114/3 .

الصنيع،⁽³⁰⁷⁾ وخلال الرسالة ذكر ابن الأبار أبياتا له في مدح المستنصر أولها
[البسيط] (308) :

1 — جَمَعَتْ لِلنَّاسِ بَيْنَ الرَّيِّ وَالشُّبْعِ فَهُمْ بِأَخْصَبِ مُصْطَافٍ وَمُرْتَبَعِ

وهذه الأبيات لابن الأبار هامة من الناحية التاريخية لأنها تبين أن ترميم وإصلاح
الحنايا تم في مرحلتين : الأولى وكانت في سنة 1250/648، والثانية تمت في سنة
1267/665⁽³⁰⁹⁾ أو 1268/666⁽³¹⁰⁾ وهي التي أنشد فيها حازم القرطاجني
المقصورة . وقد أخطأ بعض الباحثين المعاصرين في ذلك وجعلها مناسبة واحدة⁽³¹¹⁾
وأرخها بسنة 1250/648 .

— السادسة : قالها بمناسبة كان لها صداها في عاصمة الدولة الحفصية ، إذ جاءت
المستنصر بيعة مكة . وقد كتب نصّ البيعة المتصوّف الشهير ابن سبعين ، وكان ذلك
سنة 1252/657 أي بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية على يد التتار بسنة .

والطّريف أنّ هذه البيعة وصلت وقد شفي الأمير من مرض ألمّ به . ولهذا جمع
ابن الأبار في بيتين له أرسلهما من بجاية إلى تونس بين الأمرين ، فقال [الكامل]
(312) :

1— إِنَّ الْبَشَائِرَ كُلَّهَا جُمِعَتْ لِلدَّيْنِ وَالْذُّيَا وَلِلْأُمَمِ
2— فِي نِعْمَتَيْنِ جَسِيمَتَيْنِ هُمَا بُرْءُ الْإِمَامِ وَنَيْعَةُ الْحَرَمِ

(307) أرسل أبو المطرف هو الآخر من مدينة قابس وكان قاضيا عليها رسالة إلى المستنصر مهتفا
بهذه المناسبة .

(308) د/ص 451 .

(309) الفارسية ص 127 .

(310) الأدلة البيّنة التوراتية ص 8—67 .

(311) محمد ابن شريفة : أبو المطرف ، ص 152 .

(312) د/ص 290 .

12 — المشرق العربي :

يجد الناظر في ديوان ابن الأبار إشارات إلى المشرق العربي تندرج في نطاق التمجيد والتنويه بأبي زكرياء وبالذولة الحفصية . فكما خضع له المغرب فإن الشرق بشامه وعراقه لا محالة خاضع تبعاً لذلك . وابن الأبار لا يذكر من حكام المشرق العربي إلا حكام مصر من الأيوبيين . وهو يذكرهم ليستنقص من شأنهم باعتبارهم ساهموا بدور فعال في إطالة ثورة ابن غانية . فقد أرسلوا لمساعدته الغز ، وعلى رأسهم القائد قراقوش . قال ابن الأبار [الكامل] (313) :

- 22 — هَذِي الْمَمَالِكُ وَالْمُلُوكُ لِأَمْرِهِ تَنْقَادُ طِيْعَةً كَمَا تَنْسَاقُ
23 — سَتَجِيهُ عَقَبَ الْمَقَارِبِ شَامَهَا وَسَتَقْنِدِي يَمَنَ بِهِ وَعِرَاقُ
26 — يَا آلَ أَيُّوبِ اضْمَعُوا عَنْ مِصْرِهِ (314) أَوْ أَذْعُوا فَلَهُ بِهَا إِخْرَاقُ

وقد يذكر الشاعر بني أيوب حكام مصر ويقارن بينهم وبين آل يعقوب من الموحدين . ويرى أن الموحدين أكثر جرأة وشجاعة ومع ذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام أبي زكرياء فكيف بآل أيوب ؟ قال [البسيط] (315) :

- 66 — وَاصْرِفْ عِنَّاكَ عَنْ مَرَاكُشِ ثِقَةٍ بِالنَّجْحِ فِيهَا إِلَى مِصْرٍ وَبَعْدَانَا
67 — مَا آلَ أَيُّوبَ وَالْآثَارُ نَاطِقَةٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ إِقْدَامًا وَإِمْكَانَا
68 — لَهُؤَلَاءَ عَلَيْهِمْ فَضْلٌ بِأَسِيهِمْ وَقَدْ قَرَضَتْهُمْ قَتْلًا وَخِلْعَانَا
69 — بِالْأَيْدِ وَالْكَيْدِ تَضْطَرُّ الْعِدَى أَبَدًا إِلَى إِبَادَتِهِمْ سُحْمًا (316) وَغُرَانَا (317)

(313) د/ص 388 .

(314) مصره : بلده . وقد يكون الشاعر قصد مصر البلد المعروف تفاقولا بخضوع هذا البلد الكبير إلى الممدوح .

(315) د/ص 310 .

(316) السَّحْم : الموحدون .

(317) الغُرَان : الغز وقائدهم قراقوش كانوا مع ابن غانية .

13 — مقتل ابن الأَبَّار

توفي أبو زكرياء وترك لابنه المستنصر دولة قويّة ، فاتجهت عنايته إلى البناء والتشييد (و)جمع حوله طبقة من العلماء والأدباء . وكان ابن الأَبَّار واحدا منهم⁽³¹⁸⁾. وكان من ألدّ أعداء الشاعر في هذا البلاط الوزير ابن أبي الحسين ، وكان يحقد على ابن الأَبَّار . (وكان سبب حقد هذا الوزير عليه أنّ ابن الأَبَّار لمّا قدّم في الأسطول من بلنسية نزل بينزرت وخطب ابن أبي الحسين بغرض رسالته ، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم ، ونّبّه إلى ذلك فاستضحك ، وقال : إنّ أبا لا تعرف حياته من موته لأبّ خامل . ونميت إلى الوزير فأسرّها في نفسه)⁽³¹⁹⁾ وراح يكيد له .

واستطاع هذا الوزير في نطاق تنافس البلديّين والأندلسيين على المناصب الهامّة في البلاط الحفصي أن يوغر صدر المستنصر على الشّاعر . وكان (في ابن الأَبَّار أنفة وبأو وضيق خلق ، وكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصّر مداركه ... مع ما كان يسخط به السّلطان من تفضيل الأندلس وولائها عليه)⁽³²⁰⁾ .

وزاد ابن سعيد على ذلك (أنّ أخلاق ابن الأَبَّار لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة)⁽³²¹⁾ فأشخصه السّلطان إلى بجاية . لكن متى تمّ ذلك ؟

إنّ ابن سعيد عندما كتب ترجمة ابن الأَبَّار في القدح⁽³²²⁾ ذكر أنّ الشّاعر كان في ذلك الوقت في بجاية . ومن المعلوم أنّ ابن سعيد دخل تونس سنة 1254/652 والتقّى بابن الأَبَّار وأخذ عنه المقطوعات التي أوردها في كتابه . حيثنّذ يحقّ لنا أن نفترض أنّ ابن الأَبَّار نفى إلى بجاية بعد هذه السّنة . وبقي هناك إلى أن عفا عنه المستنصر سنة 1259/657 ، وقد هتأه صديقه أبو المطرّف بذلك في إحدى رسائله⁽³²³⁾ .

(318) مقدّمة إعتاب الكتاب ، ص 15 .

(319) العبر : 654/6 .

(320) العبر : 654/6 .

(321) اختصار القدح ، ص 19 .

(322) اختصار القدح ، ص 19 .

(323) ابن شريفة : أبو المطرّف ، ص 155 .

وقال الشاعر وقد التقى وجهها لوجهه بالمستنصر بعد طول غياب [الكامل] (324) :

- 1 - بُشْرَايَ بَاشَرْتُ الْهَدَى وَالنُّورَا يَلْقَائِي الْمُسْتَنْصِرَ الْمَنْصُورَا
- 2 - فَإِذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَقِيْتُهُ لَسْتُ أَلْقَى إِلَّا نَصْرَةً وَسُرُورَا

ويبدو أنَّ الشاعر لم ينجح وللمرة الأخيرة في التأقلم مع بلاط الدولة الحفصية . وتظاهر العاملان الأعداء ومزاجه الحاد في نفور المستنصر منه من جديد . ولكن في هذه المرة لم ينفه ، نظرا إلى تقدمه في السن ، وإنما احتقره وأهمله فكان ابن الأبار إذا دخل على المستنصر ، لا يكلمه ولا يلتفت إليه وكان ابن الأبار يتشكى من ذلك ويتألم [الوافر] (325) :

- 1 - عَلَتْ سِنِّي وَقَدَرِي فِي انْخِفَاضٍ وَحُكْمِ الرَّبِّ فِي الْمَرْبُوبِ مَاضٍ
- 2 - إِلَى كَمْ أَسْخِطُ الْأَقْدَارَ حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا بِرَاضٍ

وكان المستنصر إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغز معتمى أو مترجم بعث به إليه فيحلّه ، فإذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتفت إليه . فقال في ذلك [مجزوء الكامل] (326) :

- 1 - أَمْرِي عَجِيبٌ فِي الْأُمُورِ بَيْنَ التَّوَارِي وَالظُّهُورِ
- 2 - مُسْتَعْمَلٌ عِنْدَ الْمَغِيرِ بِ وَمُهْمَلٌ عِنْدَ الْخُضُورِ

ويغتمم ابن الأبار مرض السلطان وشفاءه فيهنّته بالإبلال ، وجلاء الشكّ والحيرة من قلوب الرعية [الكامل] (327) :

- 12 - شَفِيَّ الْأَمِيرُ فَكُلُّ قَلْبٍ سَاكِنٌ بَعْدَ الْخُفُوقِ وَكُلُّ طَرْفٍ هَاجِعٌ
- 13 - وَبَذَا سَنَاهُ فَلَا عَدُوَّ آمِنٌ يَرْجُو النَّجَاةَ وَلَا وَلِيَّ جَارِعٌ
- 17 - كَانُوا مِنَ الشُّبْهِ الْمُضِلَّةِ فِي دُجَى فَجَلَا غَيَاهِبَهَا هَذَا السَّاطِعُ

. (324) د/ص 447 .

. (325) د/ص 448 .

. (326) د/ص 445 .

. (327) د/ص 356 .

ثم يطلب منه العفو عنه من الجفوة والإهمال [الكامل] (328) :

40 — مَوْلَايَ عَبْدُكَ فِي الرِّضَى مُسْتَشْفِعٌ وَبَنَاتُ حَاطِرِهِ إِلَيْكَ شَوَافِعُ

41 — هُوَ ذَا يَسَابِكِ لَيْسَ يَسْأَمُ قَرْعَهُ وَلَطَّالَمَا وَلَجَ الْمُلِظُ الْقَارِعُ

44 — إِنَّ الضَّرَاعَةَ لِلْقُبُولِ ذَرِيْعَةٌ وَالْحَقُّ فِي تَحْلِيدِ أَمْرِكَ ضَارِعُ

وسواء أناله أم لم ينله فقد بقي ابن الأبار شخصا ثقيلا غير مرغوب فيه في بلاط المستنصر ، بل إنه أصبح بسلوكه مستهدفا للتخلص منه . وقد أتاح الشاعر الفرصة لأعدائه والمستنصر (ذلك أنه حضر يوما مجلس السلطان فسمعه يسأل بعض من حضر عن مولد ولده الواصل . فغدا عليه ابن الأبار في اليوم التالي برقعة فيها تاريخ الولادة وطالعها فلما رآها المستنصر استشاط غضبا من فضوله وتطفله) (329) . وألصقت به تهمة (توقع المكروه للدولة والترقب بها كما كان أعداؤه يشتنعون عليه ، لما كان ينظر في التجوم فتقبض عليه وبعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع . ولقي أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها :

طَغَى بِثُونِسَ خَلَفَ سَمُوهُ ظَلَمًا خَلِيفَةً (330)

فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه ثم بقتله قعصا بالرماح وسط محرم (1260/658) (331) . وأحرق شلوه وكتبه ومن بينها كتاب سماه (كتاب التاريخ) يسيء فيه إلى السلطان (332) .

ولا شك أن هذه بعض الأسباب التي أدت بابتئان الأبار إلى هذه النهاية المأسوية . ولكن لا يمكن أن نقول إنها كل الأسباب . فقد ورد في الديوان مثلا بيت منفرد

(328) د/ص 357 .

(329) الإعتاب ، ص 17 .

(330) د/ص 452 .

(331) العبر: ص 5—654 .

(332) الإعتاب ، ص 18 .

وهو قول ابن الأثير — إن صَحَّت نسبته إليه — في المستنصر [السريع] (333) :
 عَصَى أَبَاهُ وَجَفَّاءُ مُمُهُ وَلَمْ يُقْلَ مِنْ غُثْرَةِ عُمُهُ
 وهو بيت يدل على أنَّ الشاعر لم يكن راضيا على سلوك هذا السلطان مع أبيه ،
 وبعد وفاته مع أمه . بل لعلَّه كان يرى في مقتل عمِّيه محمد اللّحاني وأبي إبراهيم
 في ثورة سنة 1250/648 ظلما وعدوانا لأنهما لم يشاركا فيها . وهذه التّهم من التّاحية
 الشرعيّة خطيرة لأنها تجيز التّراجع في بيعه السلطان بل الخروج عليه .

الخاتمة

قام الأستاذ عبد السلام الهّراس بتحقيق ديوان ابن الأثير لأوّل مرّة بالاعتماد على
 النّسخة الوحيدة المحفوظة في الخزنة الملكيّة بالمغرب تحت رقم 4602 . والأستاذ
 الهّراس بعمله هذا الجيّد سدّ ثغرة لا يستهان بها في تاريخ الشعر الأندلسي . فصاحب
 الديوان هو إحدى الشّخصيات المرموقة خلال القرن 13/7 على المستويين السّياسيين
 والأدبيين وفي العدوتين الأندلسيّة والإفريقيّة .

وبصفة عامّة إنّ النّاطر في النّصّ الأدبي يمكن أن ينظر فيه من زاويتين :

- 1 — فإن كان ناقدا أو أسلوبيا كانت غايته منه القيمة الجماليّة فيه .
- 2 — وإن كان مؤرخا للأدب أو دارسا للتّفكير فيه كان هدفه منه القيمة الوثائقيّة .

وبما أنّنا أصبحنا نؤمن بالقيمة الوثائقيّة للنّصّ الأدبي — بعد عدّة دراسات في دوواين
 شعريّة أندلسيّة — (334) فإنّنا حاولنا أن نطبّق نفس هذا المنهج على ديوان ابن الأثير
 فكيف تراءت لنا الأحداث التاريخيّة في هذا الأثر الشعري من القرن 13/7 ؟

(333) د/ص 462 .

(334) انظر على سبيل المثال :

— القيمة الوثائقيّة في ديوان ابن الخطيب (مجلة كلّية الآداب بتطوان السنة 2 عدد
 1987/2، ص 291).

— القيمة الوثائقيّة لديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي (حوليات الجامعة التونسية العدد
 1988/27، ص 119) .

— القيمة الوثائقيّة في ديوان يوسف III (الحواليات عدد 1988/28، ص 185) .

إن ديوان ابن الأبار هو ديوان شعر ذاتي ورسمي :

1 — ذاتي بالنظر إلى العدو الأندلسية : لقد بكى فيه الشاعر وطنه الضائع فحزن وتألم لمصابه ، وحن واشتاق إلى رحابه ، ودافع وحرّض على استرجاعه .

2 — رسمي بالنظر إلى العدو الإفريقية : فقد نظر للسياسة الحفصية فمدح وقرض أمراءها ، وهجا واستنقص أعداءها ، وشجع ونوّه بمن حالفها ووالاها .

3 — على أن هناك مظهرا ثالثا في الديوان يتخلل الجانبين الذاتي والرسمي هو الجانب الشخصي : عبّر فيه الشاعر بكلّ صدق عما أصابه من محن الأيام وصروف الدهر بالعدوتين وخاصة ما تعرّض له من نكبات في إفريقية آلت به إلى المأساة الكبرى وهي مقتله على يد المستنصر الحفصي .

ونحن لا ندعي البتّة أننا وجدنا في ديوان ابن الأبار شيئا كثيرا يختلف عما هو مسطر في كتب التاريخ ، لكن هناك من الأحداث الجزئية ما لم يهتم به المؤرخون ذكرت في الديوان ، وهناك بعض التّدقيقات في حياة الشاعر استُخلِصت وأُضيفت . والأهم من كلّ هذا وذاك أننا نجد في ديوان ابن الأبار تفسيراً للأحداث ، وخاصة الإفريقية منها، من وجهة نظر معينة . هذا التفسير قد لا نجده في كتب التاريخ ، ومجال المقارنة فسيح لو وجد الشعر المقابل لشعر ابن الأبار أي الشعر المعبر عن وجهة نظر الدولة الموحدية مثلا وكان لهم في مراكش شعراء عديدون (335) . وهذا ابن الأبار نفسه يتراجع نادما عما بدر منه مغايرا للحقيقة في ديوانه . قال [المتدارك] (336) :

1 — حُرِمْتُ الرَّشَادَ لَأَنِّي سَفَاهَا خَدَمْتُ الْمُلُوكَ وَهُمْ أَغْبَدُ

2 — وَفِي رَغْبَاتِي لَهُمْ جِئْتُ إِذَا فَهَلْ رَغِبْتُ لِمَنْ أَغْبَدُ

فهل هذا الموقف من الشاعر كاف لنحذر كلّ الحذر إذا أردنا معرفة الحقيقة خالية من كلّ الشوائب ؟

(335) انظر نموذجا ثانيا من هذا الشعر في الجزء II من أطروحتنا : الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي ص 204 عند مقارنة الشعر المعبر عن وجهة نظر المأمون الموحد والشعر المقابل له المعبر عن وجهة نظر غريمه ومنافسه على الخلافة ابن أخيه يحيى المعتصم .

(336) د/ص 178 .